بذور خير

الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

مجلة فصلية– العدد ٤٠ (أيار– آب٢٠٢٣)

يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام :

"حق المسلم على المسلم ست. قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فَعُدْه، وإذا مات فاتبعه." (متفق عليه)

الأخلاق

دين المؤمن

وإنك لعلى خلق عظيم

أدب ياهو

أيها الأخوة القرآء:

يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)

القلب السليم هو السالم من الشبهات والشهوات. وذكر النبي ﷺ للقلب في حديثه الشريف: يقوله:

«إن ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (رواه البخاري ومسلم).

إشارة إلى أن اتقاء الشبهات سببه صلاح القلب والوقوع فيها منشأه ضعف القلب وفساده والله المستعان؛ ومن أعجب العجاب أن الناس لا يهتمون بقلوبهم اهتمامهم بجوارحهم، فتراهم يهرعون إلى الأطباء كلما شعروا ببوادر المرض، ولكنهم لايبالون بتزكية قلوبهم حتى تصاب بالران، ويطبع الله عليها، فتغدو أشد قسوة من الحجارة والعياذ بالله.

فالمؤمن التقي يتعهد قلبه ، ويسد جميع أبواب المعاصي عنه ، ويكثر من المراقبة؛ لأنه يعلم أن مفسدات القلب كثيرة ، وكلما شعر بقسوة في قلبه سارع إلى علاجه بذكر الله تعالى ؛ حتى يستقيم على ما ينبغي أن يكون عليه من الهدى والخير ، ويبن الحديث عظم القلب وأهميته لأن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه المحرمات واتقائه الشبهات بحسب صلاح حركة قلبه فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها وإن كان القلب فاسدا قد استولى عليه اتباع الهوى عبدا للشهوات وأسره حب الدنيا فسدت حركات الجوارح كلها ، ولهذا يقال القلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده مطيعون لأوامره لا يخالفونه في شيء. ولا ينفع عند الله يوم القيامة إلا القلب السليم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح قلوبنا ، ويصرّفها على طاعته ، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه...آمين

كلمة التحرير

الميزاب الذهبي

مجلة تصدر كل أربعة أشهر

العدد الأربعون

(أيار – آب ٢٠٢٣)

رئيس التحرير

بيت الله دميرجي أوغلو

مدير التحرير

حسام يوسف

هيئة التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

حسام يوسف

آدم أزدمير

د. مراد قايا

لقمان حلوجي

التصحيح والتدقيق اللغوي

أ. حسن مرشد

التصميم والتنضيد والاخراج الفني

حسام يوسف

دار النشر والطباعة

Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TÜRKİYE
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك

لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة

www.islamicpublishing.org
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

الأخـلاق دين المؤمن
نور الدين يلدز

العدل أساس الملك
علي رضا تمل

نهضة الأمم وفق المنهج القرآني
الأستاذ:: عثمان نوري طوباش

النفس وحقيقتها
لقمان حلوجي

كلمة التحرير	١	نهضة الأمم وِفق المنهج القرآني	٢٨
الأخـلاق دين المؤمن	٣	مَن قلَّ أدبه حُرِم من ألطاف ربِّه	٣٤
علامات الإخلاص والرياء	٩	طريق رفيع طويل	٣٨
جرح اللسان	١٠	الأهداف والوسائل	٤٠
النفس وحقيقتها	١٢	العفو المحمدي والأخوة اليوسفيَّة	٤٣
أنفعهم للناس	١٦	القدس مدينة الروح	٤٦
الجوانب الإعجازية في القران الكريم	١٨	كيـف تعرفـون الرابطة	٤٩
ونفس وما سوّاها	٢٠	الإخلاص	٥٢
التدين في المدينة	٢٢	الشخصية الإسلامية في المنهج العثماني	٥٥
طريق الحق أدق من الدقة	٢٦	حلاوة الإيمان	٥٦
العشق الحقيقي	٢٧		

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

نور الدين يلدز

الأخـــلاق

ديـن المؤمن

أود أن أتحدث عن "أخلاق المؤمن". فهي موضوع أساسي وهام في حياة المسلمين وعلاقاتهم ببعضهم البعض. فلنقف عند هذا الموضوع ولنتحدث عنه. ماذا تشكل الأخلاق بالنسبة إلى المؤمن؟ ما أهمية الأخلاق؟ تعتبر الأحكام الفقهية المصدر الأساسي الذي يرجع إليه الناس في فهم ومعرفة مسائل الحياة التي تواجههم، فكيف تُعقد مقارنة بين الأخلاق والفقه؟ ما هو مفهوم أخلاق المؤمن؟

ماذا تشكل الأخلاق بالنسبة إلى المؤمن؟ فأقول إن أخلاق المؤمن هي المؤمن بعينه، لأن أخلاق المؤمن مصدرها الوحي. فالأخلاق هي السلوك الذي أمرنا الله تعالى ورسوله ﷺ بالتحلي به في حين أن الأخلاق بالنسبة إلى المجتمعات غير المؤمنة هي الصفات التي يستحسنها المجتمع ليس إلا. ما كان يراه المجتمع قبل مئة عام عيباً وعاراً أصبح يراه اليوم رقياً وحضارة، هذه هي أخلاق العصر الحالي. أما معايير الأخلاق بالنسبة إلى المسلم المؤمن فهي لا تختلف اليوم عما كانت عليه قبل مئتي عام. وأوضح مثال على ذلك هو أنه اليوم لا يُعتبر من العيب في شيء أن يشرع الطفل بالطعام قبل أبيه، أو أن يطلب من أمه أن تحضر له الماء، لكن قبل مئة عام كان ذلك عيباً كبيراً. لماذا؟ قبل أربعة عشر قرناً نهى رسول الله ﷺ عن أمر الأم بهذه الطريقة. وبعد خمسة آلاف سنة سيبقى أمر الأم بإحضار ماء أمراً ممنوعاً على المؤمن ولن يتغير هذا حتى وإن لم يبقَ ليوم القيامة سوى ساعة واحدة، لأن مصدر أخلاقنا هو الوحي ولن تتغير أخلاقنا حتى قيام الساعة. الأخلاق في الإسلام لا تتغير لأن الإسلام واحد لا يتغير. لا يرد وصف الأخلاق بأنها فرض واجب بل تعرف بماهيتها.

لكن السؤال كيف يمكن معرفة الفرق بين هذا وذلك؟ رسولنا الكريم ﷺ نبي الأخلاق يصفه الله تعالى في كتابه العزيز بأنه على خلق عظيم ويقول رسول الله ﷺ:

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

إننا نتكلم عن الأخلاق التي هي جزء لا يتجزأ من شخصية الرسول ﷺ. ما الفرق بين الأحكام الفقهية كالفرض والواجب والسنة وبين الأخلاق؟

وما الذي نسميه بالأخلاق؟ إننا نسمي علاقة الإنسان بمن حوله أخلاقاً. مثلاً ليس النوم على الجانب الأيمن صفة من صفات الأخلاق ولا يعتبر شرب الماء باليد اليمنى على ثلاث دفعات خصلة من خصلات الأخلاق. فالأخلاق هي كيف أقدم لكَ الماء، أو كيف أجلس باحترام دون أن أمد قدمي أمامك. تظهر الأخلاق في المواقف التي يتأثر فيها الآخرون بتصرفاتي، ولهذا علاقة بالأحكام الفقهية بالتأكيد. بعضها فرض وبعضها واجب وبعضها سنة، بعضها حرام وبعضها مكروه. ليست الأخلاق سلوكاً كيفياً يتحلى بها المرء متى أراد ويهملها متى أراد.

لنستعرض مثالاً بسيطاً عن الأخلاق: هل يمكن لمسلم تفوح رائحة فمه الذهاب إلى الجامع؟ هل يستطيع مَن تفوح رائحة فمه أن يحضر اجتماعاً أو أن ينضم إلى مجلس. يقول الرسول الكريم: "من أكل من هذه الشجرة ـ يعني الثوم ـ فلا يقربن مسجدنا." (متفق عليه)

إنه يقول إن من تنبعث من فمه رائحة غير مستحبة، يتسبب في إزعاج غيره. هذه قاعدة أخلاقية. أي إن رسول الله ﷺ يقول لمن يذهب لأداء فريضة الصلاة: لقد أكلت ثوماً فلا تدخل الجامع إذن. على الرغم من أن الرسول ﷺ يعد الصلاة واجباً إلا أنه يرجح كفة الامتناع عن أداء الواجب تحاشياً لإزعاج الآخرين. إن عدم مراعاة الأخلاق يعني الظلم.

كما أن توجيه كلام مسيء للمسلم والغيبة هي انعدام في الأخلاق. إننا اليوم نسمي الغيبة حواراً لطيفاً نتبادله في جلساتنا. لذا فإننا لا ندرجها في المواضيع الأخلاقية على الرغم من أن الأخلاق في شريعتنا تشمل كل جوانب الحياة وجميع أوجه العلاقات الإنسانية.

يتناول "الأدب المفرد" للإمام البخاري الكثير من تفاصيل حياة المسلم التي تبدأ من حقوق الأم، مروراً بإلقاء السلام والجلوس والنهوض والتثاؤب إلى ما هنالك من تفاصيل الحياة اليومية. يوضح الكتاب الآداب الإسلامية الواردة في السنة النبوية والآيات القرآنية. لماذا يُقال "من لا يتمتع بالأخلاق لا دين له"؟ لأن قسماً كبيراً من الصفات الأخلاقية تعني تجنب الحرام، والقسم الآخر هو القيام بالفرض. مثلاً؛ أن يحترم الابن أمه وأبيه ويبجلهما وأن يرى نفسه أمامهما كما لو كان في السادسة من العمر حتى وإن بلغ الستين... هذه هي الأخلاق. وهذه هي الواجبات التي تلي واجبات طاعة الله تعالى في القرآن الكريم. لذا ليست الأخلاق الشرط السابع من شروط الإيمان بل هي مجموعها بالكامل.

إننا على عتبة الدنيوية والانشغال بالحياة الدنيا. لقد جرفنا العالم بمعاييره الجديدة حتى كاد أن ينسينا أخلاقنا أو يكسبنا أخلاقاً جديدة. لقد أصبح الهندام وأناقة المظهر معياراً لدرجة الأخلاق. كذلك فإن استعمال كلمات دبلوماسية منمقة يُعد اليوم من حسن الأخلاق. عند إغلاق مكبر الصوت تسمع الكلمات النابية غير المهذبة وعند فتحه تتناهى إلى الأسماع كلمات معسولة منمقة.

الإيمان مُتَضمَّن في الأخلاق، من لا يتحلى بالأخلاق لا يمكنه حتى التفكير في شروط الإيمان. مثلاً هل من الممكن صياغة جملة كهذه: إن الصلاة فرض على البقر؟ كلا بالطبع هذه الجملة غير مقبولة. لمَ لا يوجد في القرآن الكريم جملة كهذه؟ لأن الإسلام دين الإنسان. والأخلاق ليست أحد شروط الإيمان. فانعدام الأخلاق لا يتماشى مع الإسلام. الرسول ﷺ قدوة في الأخلاق، من كان يشكو من مشكلة في أخلاقه أو لا يتحلى بالخصال الحميدة كيف له أن يدَّعي انتماءه إلى أمة محمد ﷺ واتباع نهجه.

مثلاً نحن نولي الأخلاق اهتماماً كبيراً في علاقاتنا الأسرية، وعندما يتطلب الأمر نتحول إلى علية القوم. ولكن يجب ألا تُؤخذ الأمور بظواهرها فحين عرَّف رسول الله ﷺ خيار أمة المؤمنين، قال:

"خيركم خيركم لأهله." (الترمذي: ٣٨٩٥)

وهذا يعني أن الأخلاق وقبل أن تظهر في المجتمع يجب أن تظهر في الأسرة التي تُعتبر الخلية الأساسية في المجتمع.

وقد قلنا قبل قليل، لا يكون المسلم مسلماً إذا لم يتحلَّ بالأخلاق. إذا ما نظرنا إلى حياة المؤمنين في المجتمع الإسلامي نرى مسافة هائلة تفصل الإنسان عن الأخلاق. وإذا قمنا بتسليط الضوء على المؤمن وحاولنا تحديد إيجابياته وسلبياته نجد أنفسنا أمام السؤال التالي: أيهما أكثر: الايجابيات أم السلبيات؟ لكن كيف يحصل هذا؟ كيف يمكن أن ينأى المؤمن بأخلاقه عن أساسيات الإيمان؟

هناك نقطتان أساسيتان الأولى "لا يوجد مؤمن عديم الأخلاق."، والثانية "لا يوجد مؤمن لا يخطئ". قد لا يؤدي المؤمن الصلاة في وقتها، نفس الأمر ينطبق على الأخلاق. المؤمن قد يكون مقصراً في صلاته أو في إحدى خصال أخلاقه. ومن هنا يجدر بنا التفكير بأن المؤمن ليس معصوماً عن الخطأ فهو ليس ملاكاً، ولكن يمكن القول إن على المؤمن ألا يرتكب ذنوباً تفوق حسناته.

عند التمعن في الفرد وفي المجتمع الإسلامي نرى مثلاً شخصاً يواظب على صلاته في حين أنه يعاني من مشاكل واضحة في أخلاقه. هنا لا بد من التساؤل: كيف يكون المؤمن هكذا؟

إنها دعاية سيئة بحق المؤمن، حيث يتم تعريفه بطريقة سيئة. هل يمكن ألا يهتم المؤمن بالأخلاق؟ لا وجود لمثل هذا المؤمن. هل يمكن أن يكون المؤمن بدون أخطاء؟ هذا أيضاً أمر غير ممكن.

أبسط مثال على ذلك هو أنه يمكن للمؤمن أن يتثاءب ويؤثر سلباً على نشاط أصدقائه، أو يمكن أن يتلفظ بكلمة غير مستحبة فنحن بشر. والإنسان ليس له أن يدَّعي الكمال. حسناً، ماذا علينا أن نفعل في هذه الحالة؟ يجب أن تكون أفعالنا الحميدة أكثر من أخطائنا.

وهناك أمر آخر وهو أن علينا عدم التشدد في قراراتنا. مثلاً أي طفل قد يكون مشاكساً لكن هذا لا يعني أن نتخلى عنه أو نتبرأ منه فالطفل لا يشاكس باستمرار، يشاكس مرة في الأسبوع لا أكثر. وإن كان يشاكس كثيراً فهذا يعني وجود مشكلة أخرى لديه وبأن الأمر قد تعدى قضية المشاكسة في حدودها الطبيعية.

كما قلت في البداية، تُعتبَر الأخلاق في يومنا هذا المعاييرُ التي يقبل بها الجميع في المجتمع. هل دخلت هذه المعايير حياة المؤمن الذي وجد نفسه منجرفاً بشكل أو بآخر في تيار المجتمع بكل ما فيه من مفاهيم ومعايير مختلفة؟ هل من الممكن أن يكون عدم إلمام المؤمن بشكل كاف بمفهوم الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها كمؤمن هو الذي يؤدي إلى تأثره بمفاهيم المجتمع؟

سأذكر مثالاً على ذلك وهو قول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه." (الترمذي: ١٠٨٤)

ترد في القرآن كلمة "المعروف" دلالة على طريقة التعامل داخل المنزل دون التطرق إلى ذكر أفعال معينة. والمعروف هو الأمر الجيد الحسن المناسب للمعايير. لماذا لم تُذكر أفعال معينة؟ لأن هذا يتغير مع الزمن. للفقهاء شروحات غريبة في هذا الصدد. فهم مثلاً يقولون إذا ما تزوج الرجل بامرأة غنية (أو المرأة برجل غني) فعليه هو أن يحدد معايير التعامل.

أي إن المرجع الأساسي في الحكم على الشخص هو دينه وأخلاقه. يمكننا هنا أن نتساءل ولكن أين الدين والأخلاق منا اليوم؟

إننا على عتبة الدنيوية والانشغال بالحياة الدنيا. لقد جرفَنا العالَم بمعاييره الجديدة حتى كاد ينسينا أخلاقنا أو يكسبنا أخلاقاً جديدة. لقد أصبح اللباس وأناقة المظهر معياراً لدرجة الأخلاق. كذلك فإن استعمال كلمات دبلوماسية منمقة يُعد اليوم من حسن الأخلاق. عند إغلاق مكبر الصوت تسمع الكلمات النابية غير المهذبة وعند فتحه تتناهى إلى الأسماع كلمات معسولة منمقة. ونحن نقبل بهذا كله بل نعتبره ضرورة هامة في حياتنا. إننا نعيش متأثرين بالأفلام والمناهج المدرسية. عندما نرى إنساناً لطيفا يسترعي انتباهنا وكأنه شخصية أتت من التاريخ، غريبة لا تمت بصلة إلى ما حوله.

والأعجب من ذلك أننا حين نرى شاباً خلوقاً مهذباً وبدل أن نقول: ما شاء الله على حسن خُلُقه، وندعو له أن يحميه الله ويبارك فيه، نقول: إنه "يشبه الفتاة" ولكأنما اللطافة لا تليق بالرجال. فالتمتع بالأخلاق ولطف التعامل أصبح قصراً على جنس دون سواه. وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق. فالأخلاق هي الدين بعينه. لا داعي لتشبيه من كان على خلق كريم بالفتاة، بل يجب وصف كل من يتمتع بخلق حسن بأنه ذو أخلاق شبيه بأخلاق الرسول ﷺ.

تدخل العقيدة القلوب عندما يدخل القرآن القلوب، وعندما يدخل الرسول الكريم ﷺ إلى الحياة يتحلى الناس بالأخلاق الواجب على المؤمن التحلي بها...

إن الاسلام دين أصحاب الخُلُق القويم، يمكن تشبيه ذلك عندما نضع اللبن الأبيض في كوب نظيف براق. لا يمكن أن يكون الإسلام دين الزاني أو لاعب القمار. وكما أننا لا نضع اللبن في كأس قذر كذلك لا يمكن للإسلام أن يكون ديناً لعديمي الأخلاق إنهم يرفضونه ويولون بعيداً هرباً منه.

هل هناك استعداد خُلُقي للتوجه نحو الأخلاق؟ هل هذه الفكرة صحيحة؟ هل نصل بارتداء رداء الإسلام إلى الأخلاق؟

يولد الإنسان بفطرة سليمة. لكن قد تقوم عوامل من المحيط بإفسادها، وهنا يأتي دور الإسلام بتصحيح الفطرة وإعادتها إلى أصلها. إن الإنسان يُخلق سليماً صحيحاً نظيفاً ثم يعكره الكفر ويشوه الشيطان فطرته. يشير الرسول ﷺ إلى هذا بقوله:

"**كل مولود يولد على الفطرة.**" (متفق عليه)

أبسط مثال على ذلك صدق الأطفال، فالأطفال لا يستطيعون الكذب، بل ونراهم يُصدقون والدهم حتى لو تكلم كذباً. فلا مكان للكذب في فطرة الطفل. ولكن فيما بعد يتفوقون على والدهم في اختلاق الأكاذيب.

يهتم الناس في العادة بتعلم كيفية الصلاة والصيام. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل يجب أيضاً تعلم الأخلاق أم أن تعلم الصلاة والعبادات أمر كاف لاكتساب الأخلاق؟

قد لا تفيد الصلاة البعض في اكتساب الأخلاق وتعلمها كما يجب، ناهيك عن أن الشيطان يوسوس في أذن المصلين الكثير من الأكاذيب المنمقة المعسولة. وأنا أعتقد أن تدريس الأخلاق لا يكون كتدريس العلم

وتلقين المعلومات لأنه عندما تتحول الأخلاق إلى كتاب ومعلومة، فمن السهل حينها أن تُؤلف نظريات معاكسة لها تطعن بصحتها.

فإذن كيف يمكن أن يكتسب الإنسان الأخلاق ويتعلمها؟

لكي نتعلم أخلاق الدين كل ما علينا فعله هو قراءة رياض الصالحين، قراءة الأحاديث الشريفة والتمعن في صفات وشخصية النبي ﷺ. أما الأخلاق المصنفة إلى معلومات وفصول فإنها أشبه ما تكون بالفلسفة. مثلاً إذا أردنا تعليم طفل أخلاق النبي ﷺ وقدمناها له على شكل معلومات في كتاب، فإن هذا الكتاب سيحتوي على معلومات دخيلة من كتاب آخر ومن فكر آخر، لذا فمن الأفضل أن يتعرف الطفل على النبي ﷺ من خلال الأحاديث مباشرة فيحفظ مئة حديث مثلاً. يقول حديث نبوي شريف:

"حق المسلم على المسلم ست. قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فَعُدْه، وإذا مات فاتبعه." (متفق عليه)

إذا ما حفظتُ هذا الحديث فهذا يعني أني سأعمل به وسأراعي الأسس الستة التي وردت فيه طالما أنني مؤمن. لذا فأنا أرى أن تحفيظ الأحاديث أمر ضروري للأطفال. مثلاً يتضمن كتاب رياض الصالحين أكثر من خمسمئة حديث والطفل الذي يتعلمها ينشأ نشأة مشابهة لنشأة أنس بن مالك.

أود أن أتسآل معكم عن العلاقات في المجتمع كيف يجب أن تكون؟ مثلاً: حياة الأسرة، كيف يجب أن يتعامل الأزواج مع بعضهم البعض؟ ما هي معايير الأخلاق في علاقة الوالدين بالأولاد؟ ما هو السلوك الصحيح للأولاد مع الوالدين والأجداد والجدات والأقارب المتخاصمين. فلنبدأ بكيفية تعامل الزوجين في إطار الأخلاق، كيف يجب أن تكون؟ وللإجابة على هذه التساؤلات لنتذكر المعايير التي تكلمنا عنها آنفاً. لقد قلنا إن أخلاق المؤمن هي دينه. المؤمن يُعرف من مدى التزامه بدينه والملتزم بدينه ملتزم بأخلاقه دون شك. فالدين هو الأخلاق بعينها والأخلاق هي الدين بعينه، بمقدار ما أتمسك بديني أتمسك بأخلاقي. ما هي النتيجة الطبيعية لهذا؟ كم نقضي من أوقاتنا في المنزل، وفي العمل وفي الجامع، يجب توزيع الأخلاق بحسب

هذه النسبة. إذا ما حسبنا النسبة المئوية لتواجدنا في كل من هذه الأماكن فيمكننا أن نعرف نسبة أخلاقنا. نحن بحسب ما تقتضيه متطلبات الحياة اليوم نقضي ٥٥- ٦٠ في المئة من أوقاتنا في المنزل و٥ في المئة في المسجد وإذا ما سُئل أصدقائي عن أخلاقي عندها ستكون إجابتهم أنها لا تتعدى الخمسة في المئة ذلك أن هذا هو الوقت الذي أكون فيه في المسجد فحسب. فأنا في المسجد لا أنام ولا آكل كل ما أقوم به هو عبادة الله. ولكن حساب نسبة أخلاقي على أنها الوقت الذي أكون فيه في المسجد فقط أمر غير صحيح.

> ماذا تشكل الأخلاق بالنسبة إلى المؤمن؟ إن الإجابة الوحيدة على هذا السؤال هي أن أخلاق المؤمن هي المؤمن بعينه فلا يمكن الحديث عن أخلاق المؤمن بمعزل عنه. فالأخلاق هي السلوك الذي أمرنا به الله تعالى ورسوله ﷺ. في حين أن الأخلاق بالنسبة إلى المجتمعات غير المؤمنة هي الصفات التي يستحسنها المجتمع ليس إلا.

وقد أشار عمر رضي الله عنه إلى ذلك؛ بأنه علينا ألا نغتر بقيام شخص وقعوده في صلاته، بل علينا أن ننظر إلى تجارته. علينا ألا ننظر إلى الوقت الذي يقضيه في المسجد وحسب حتى نُقَيِّم أخلاق إنسان. إذا ما كان يقضي خمسة في المئة أو ربما عشرين في المئة من وقته في المسجد وثلاثين في المئة في العمل فإنه يقضي خمسين في المئة من حياته في المنزل.

أي أن نصف أعمالنا التي تُكتب عند الله تعالى تُكتب ونحن في منازلنا...

نعم؛ نمضي قسماً كبيراً من حياتنا في المنزل. إن المكان الذي توجد فيه وسادتك والذي تنام فيه هو مكانك الأساسي. أما مكان العمل مثلاً فليس كذلك بالطبع. عندما تُمتحن أخلاق المؤمن تُمتحن وهو في منزله لأنه المكان الذي يقضي فيه نصف وقته على أقل تقدير. والنقاط التي يحصل عليها من ذلك كافية لتجعله يجتاز معدل النجاح. وفي حال الحصول على النقاط التامة في المنزل فإنه يكفي الحصول على اثنين أو ثلاثة في المئة من مكان آخر لتجاوز معدل النجاح. ولكن المؤمن الذي لا تكون أخلاقه كما يجب داخل منزله، لا يحصل على النقاط الكافية وسيكون من الصعب أن يحصل على نقاط من أي مكان آخر ليتجاوز معدل النجاح. فالمسجد هو المكان الذي نؤدي فيه واجباتنا تجاه الله تعالى، أما الأخلاق فهي تتعلق بعلاقتنا مع الآخرين.

إذن ما الذي علينا القيام به في المنزل لكي لا نخسر نسبة الخمسين في المئة؟

إن الخلافات بين الأزواج هي أكبر مشكلات الأسرة. في زمن الرسول ﷺ كثُر الحديث عن المشاكل الأسرية في المسجد في المدينة المنورة وكانت النساء تأتين لتشتكين أزواجهن، فاشتكى عمر ﷺ النساء إلى رسول الله ﷺ. عندها نهض الرسول ﷺ وقال: إن أقرب المؤمنين له يوم القيامة هو أفضلهم خُلقاً وبأن أفضلهم خلقاً هو من يعامل زوجته معاملة حسنة. أين يقول ذلك؟ إنه يقوله في المسجد عند صلاة الصبح. يثبت هذا الحديث أن المسجد لا يملأ مكان المنزل في حين أن المنزل يملأ مكان المسجد.

كيف تكون هذه المعاملة الحسنة؟

ترد في القرآن كلمة "المعروف" دلالة على طريقة التعامل داخل المنزل دون التطرق إلى ذكر أفعال معينة. والمعروف هو الأمر الجيد الحسن المناسب للمعايير.

لماذا لم تُذكر أفعال معينة؟ لأن هذا يتغير مع الزمن. للفقهاء شروحات غريبة في هذا الصدد. فهم مثلاً يقولون إذا ما تزوج الرجل بامرأة غنية (أو المرأة برجل غني) فعليه هو أن يحدد معايير التعامل معها أو بعبارة أخرى أن يُحدد معايير المعروف. أما إذا تزوج الرجل بامرأة فقيرة فالأمر أسهل فهي لا تنتظر منه الكثير.

يُحكى أن ابن عباس ﷺ ابن عم الرسول ﷺ ومفسر القرآن الكريم كان يوماً في طريقه إلى منزله فانحنى على بركة ماء ونظر إلى انعكاس وجهه عليها ثم قام بتسريح شعره وذقنه. فتعجب أصدقاؤه الذين كانوا برفقته ومازحوه قائلين: ما بال مفسر القرآن الذي تقدم به السن يُسرح شعره الأبيض. وكأنهم يقولون له "سواء سرحت شعرك أم لم تفعل فلا فرق." وانتظروا جوابه لعلمهم بأنه سيكون مرشداً لهم في حياتهم. فقال لهم: امنحوا زوجاتكم ما تريدونه منهن. إن هذا ما يوصي به القرآن. أي أعطي الزوجة بمقدار ما تريده، وإذا طلبتَ من زوجتك أن تكون جميلة فكن أنت كذلك.

عندما أذهب إلى منزلي أريد أن ألقى زوجتي جميلة وأنيقة لذا أقوم أنا أيضاً بذلك، هذه هي أخلاق المؤمن. ولكن إن كنت فهمت من هذا أن عليك وزوجتك الذهاب إلى صالون الحلاقة فإنك لم تفهم شيئاً من الإسلام. إن مقياس الرجولة لدى ابن عباس ﷺ هو: إن كنت لا أريد أن تصرخ زوجتي في وجهي فعلي ألا أصرخ أنا في وجهها، وإن كنت أريدها أن تسرح شعرها فعلي أنا أيضاً أن أسرح شعري. أن يكون للزوج الحق في أن يطلب دون أن يكون للزوجة نفس الحق ليس من الأخلاق. هذه أكبر المشكلات التي تعانيها الأسر. لا يحق للرجل الطلب والأمر وفرض رغبته على زوجته، من لا يعطي الحق لزوجته أن تعامله كما يعاملها فلم يعلّمه القرآن الذي علّم ابن عباس ﷺ .

علامات الإخلاص والرياء

عَنْ عائشة ﵂، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة} [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

قال: " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم {أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}»

(الترمذي، ٣١٧٥)

قال العلامة المبارك فوري في -تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي-:

{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ} أي يعطون {مَا آتَوْا} أي ما أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة {وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} أي خائفة أن لا تقبل منهم وبعده {أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} أي لأنهم يوقنون أنهم إلى الله صائرون {أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} كذا في هذه الرواية وفي القرآن أولئك يسارعون أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة وهم لها سابقون أي في علم الله وقيل أي لأجل الخيرات سابقون إلى الجنات أو لأجلها سبقوا الناس،وقال بن عباس سبقت لهم من الله السعادة

عنِ الزبير بن العوام:

«من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل»

خبء من عمل صالح: أي من الأعمال الخفيّة التي لا يطّلع عليها أحد من الناس خالية من الرياء فتكون خالصة لله تبارك و تعالى مثل صلاة النافلة في جوف الليل أو صدقة السر أو أي عمل آخر من الأعمال الصالحة.

عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»

قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال: «الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة: إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » (أحمد:٢٣٦٣٠)

الرياء لغة: معناه الإظهار. ومعناه شرعاً: (فعل الخير بقصد أن يراه الناس ويحمدوه عليه). فترى المُرائي يُحسِّن العمل أمام الآخرين، ولا يقصد طاعة الله بهذا التحسين للعمل. وإن من أهم أسباب الرياء: حُبّ الظهور والرئاسة وضعف الإيمان. وأخطرُ نتائج الرياء: عدم قبول الأعمال عند الله تعالى، وعدمُ الثِّقة بين الناس. وقد جعل الله تعالى للأعمال شرطين أساسيين. هما: أولاً أن يكون العمل صالحاً صواباً مشروعاً موافقاً للكتاب والسنة. وثانياً أن يكون عملاً خالصاً لله تعالى بعيداً عن كل أنواع الشرك كبيرِهِ وصغيرِهِ. ومن الشرك: الرياء لقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوْحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُم إِلَهٌ واحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً﴾ (الكهف: ١١٠)

عائشة آيتَن غورصوي

جرح اللسان

دعونا لا ننزلق إلى مواضع الغيبة ذات الرائحة النتنة، فنكون فيها بمثابة المدخن السلبي. أحياناً تنتشر هذه الرائحة فجأة في وسط بيوتاتنا، وأحياناً تفرض هذه الرائحة نفسها في وسائط النقل التي نركبها للسفر من مكان إلى آخر، وأحياناً أخرى تنبعث هذه الرائحة في الأماكن التي نعمل فيها ونلتقط رزقنا. لا مهرب منها، وكأن هذه الرائحة قد اخترقت كل زاوية من زوايا حياتنا.

إنهم يتناولون أفخر أنواع سجائر الغيبة، فيشعلونها، ويسحبونها إلى داخلهم بكل متعة وتلذذ. إنهم في تلك اللحظات يظنون بأن سيجارة الغيبة تدخل إلى نفوسهم الراحة والانشراح، ولكن لا يعلمون بأنهم يعملون على تدمير كل أعضائهم الداخلية. وكأنهم لا يكتفون بسوق أبدانهم إلى الهلاك حيث ينفخون بها إلى الخارج بكل قوة نفسهم. فيتعرض المدخنون السلبيون الذين يستنشقون تلك الرائحة بصمت للخطر عينه.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان".(رواه مسلم)

تُشبه الغيبة بالنار. فكيف أن النار تأكل الحطب، فإن نار النار الغيبة تأكلنا وتنهينا مثلها.

نعتقد بأننا عندما نبوح بكل ما ترغب أنفسنا بقوله بحالة الغضب سوف نشعر بالارتياح، وسوف نلحق الضرر والأذى بالآخر الذي غضبنا منه. بينما في الحقيقة فإننا بهذا الفعل نضع منجلاً بيد الشيطان، فيحصد بها حسناتنا واحدة بعد الأخرى. وبعد ذلك يستلقي ويضحك مقهقهاً بكل فرح ومتعة. فهل من السهل اكتساب الحسنات؟

فأين نحن ممن قال بجانب النبي عليه الصلاة والسلام "إن فلاناً قصير"، فقال النبي عليه الصلاة والسلام مغضباً:

"لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته".

(رواه الترمذي)

وانظروا ماذا يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١١ – ١٢)

كان الذي أشار إليّ بيده؟ هل كان ملكاً مكلفاً من الله تعالى؟ وكيف يمكنني الآن التكفير عن ذنبي؟

فعبر الرجل عن تأسفه وندمه، وتاب من ذنبه. ثم قال للشيخ متسائلاً: "لقد تبت، فهل يا ترى تخلصت من ذنب الغيبة؟ ولكي يعطيه الشيخ درساً تربوياً مفيداً قال له: "ليس بتلك السرعة التي تتصورها. فاذهب الآن إلى بيتك، فخذ وسادة إلى سطحه ومزقها هناك بالسكين ثم عد إلي. ففعل الرجل ما طلبه منه الشيخ ثم عاد إليه. فسأله الشيخ: هل مزقت الوسادة بالسكين؟ أجاب الرجل:نعم، لقد مزقت الوسادة كما قلت لي.

فقال الشيخ: وما ذا كانت النتيجة؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت:

من هؤلاء يا جبريل، قال:

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم "

(أبو داود:٤٨٧٨)

وعن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

"لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال جبريل: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم". (أبو داود:٤٨٧٨)

ذات يوم أخذ رجل جالس مع أحد أصحابه يغتاب شخصاً له به معرفة قليلة. وفي تلك الليلة رأى الرجل حلماً غريباً، حيث بدت فوقه يد كبيرة وأخذت تؤشر نحوه. فاستيقظ الرجل فجأة من النوم وقد سيطرت عليه مشاعر تأنيب الضمير والشعور بالذنب.

وفي اليوم التالي ذهب الرجل إلى أحد الشيوخ وقص عليه كل ما جرى معه. وبدأ بطرح أسئلة على الشيخ:هل الكلام على إنسان ما "الغيبة" ذنب؟ ومن

فأجاب الرجل:لقد تطاير الريش الذي بداخلها في كل اتجاه.

فقال له الشيخ:"أريد منك الآن أن تعود إلى البيت وتجمع كل الريش الذي بعثرته الرياح."

فقال: ولكني لا أستطيع فعل ذلك. فأنا لا أعلم أين ذهب ذلك الريش، حيث أن الرياح قد نثرته في كل الاتجاهات.

قال الشيخ: هذه هي "الغيبة". فالريَش التي تذروها الرياح تتطاير من حولنا، وتتناثر في كل اتجاه. فما الذي ننظره بعد حتى نلتفت فنجمع هذه الريش؟

فماذا تقولون؛ هل نصغ السمع لنصيحة مولانا جلال الدين الرومي؟: "إن غيبة هذه الدنيا مثل غبار كثيف تغطي مرآة القلب. فكن عاقلاً، واجعل الصمت عادة لك لبعض الوقت."

قد أفلح من زكاها

النفس وحقيقتها

٢

لقمان حلوجي

لقد وردت كلمة النفس في القرآن الكريم موصوفة بأوصاف مختلفة، وأولى هذه الأوصاف: "النفس الأمارة".

وقد تمت الإشارة إلى النفس الأمارة في قوله تبارك وتعالى:

{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

(يوسف: ٥٣)

تُعرف النفس الأمارة بأنها تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة، ومرتع الأخلاق الذميمة، وتشجع على ارتكاب المنكرات والذنوب، ولا تحض على ترك الأعمال السيئة وإنما تحضُّ عليها. وفي الوقت نفسه هي "الداعية إلى المهالك المُعِينة للأعداء المتَّبِعة للهوى المتَّهَمة بأصناف الأسواء".

أيها الإخوة الأعزاء!

إياكم أن تنسوا بأننا جئنا إلى هذه الدنيا لنخضع لامتحان!

إن في معرفة خصائص أدنى مراتب النفس الموجودة في كياننا والواجب تزكيتها فائدة عظيمة لنا؛ إذ إن النفس الخام التي لم تُطهَّر من السيئات والقبائح والآثام بالتربية الروحية هي عبارة عن كل المشاعر والميول السلبية والرغبات السفلية الموجودة بدواخلنا والتي تبعدنا عن ربنا سبحانه وتعالى، وإذا لم نسيطر عليها فإنها تقودنا إلى الخسران الأبدي. ويُقال عن هذه النفس-كما ذكرنا قبل قليل-: النفس الأمارة.

والإنسان الذي يكون في مرتبة النفس الأمارة لا يُقدِم على العمل الصالح وفعل الخير، ولا يتجنب الآثام والسيئات، إلا أنه يشعر بالندم عند إتيانه بفعل سيء،

ولكن هذه الندامة لا تؤثر على تصرفاته وأفعاله. وهذا النوع من النفس خاضع لتأثير الهوى بدرجة كبيرة. ولكي يتمكن الإنسان من تنمية الصفات الإنسانية وتقويتها في ذاته، فلا بد أن يبذل جهداً، ويبدي اهتماماً في سبيل التخفيف من المتع الدنيوية، وإضعاف حظوظ النفس، أكثر من العمل على تلبية المتطلبات والرغبات البهيمية. ومخالفة النفس في هذه المرحلة أو المرتبة هي رأس كل العبادات، وكمال سائر أنواع المجاهَدات.

وأما النفس التي يمكن اعتبارها بالمرتبة الثانية والتي وردت في القرآن الكريم فهي: "النفس اللوامة".

وهي النفس التي أُنيرَت جزئياً بنور القلب، واكتسبت بمقدار ذلك النور يقظةً وحذراً. وهي نفس تلوم صاحبها في أعقاب كل معصية يرتكبها. والنفس التي تبدأ بمفارقة صفتها الجِبلِيَّة الخام وتتجه نحو مقام الاطمئنان، وتأخذ وصف اللوامة تعلم بأن التصرف السليم عند ارتكاب خطأ ما أو اعتداء على حقوق الآخرين هو ترك هذا الفعل.

أيها الإخوة الأعزاء!

إننا جميعاً نرتكب الأخطاء، ونتعرض للوقوع في المعاصي والذنوب. وإذا ما أخضعنا أنفسنا للتربية فإننا سوف نصل إلى مرحلة نميِّز فيها الأعمال السيئة وننتبه إليها جيداً، وبذلك نتجنب الوقوع في الغفلة. والخطوة الأولى من هذه التربية تبدأ عندما ننجح في لوم أنفسنا لدى ارتكابنا لخطأ أو معصية ما.

إلا أن هناك خاصية أخرى لأصحاب النفس اللوامة وهي حال الصراع والمقاومة الداخلية التي يعيشها أثناء ترك الأفعال التي أقدم عليها، وهذا الأمر نابع من عدم تحقيق الكمال كما ينبغي. وفي هذه المرحلة تتحقق مجموعة من الإيجابيات في حياتنا الروحية، ونشعر بين الحين والآخر بالندم على ما صدر منا من الأخطاء والمعاصي ونميل إلى التوبة.

فإذا بقينا على هذه الحال فإن النفس توصف بالتوَّابة، إلا أنها ما تزال مغطاة ببعض الحجب الرقيقة.

لقد ورد ذكر النفس اللوامة في القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢)

وإذا أردنا تعريفها نقول:

إن هذه النفس التي تحض الإنسان أحياناً على ارتكاب المعاصي والذنوب هي نفس محتالة ومخادعة. وتمتلك مهارة وبراعة في قلب الحقائق وذلك بإظهار الأعمال الصالحة والحسنة كأعمال سيئة وقبيحة، وإظهار الأخطاء والسيئات كأعمال حسنة وصالحة. وتعرف جيداً ألاعيب التضليل، فتتلون بألوان وأشكال كثيرة، ولا تدع دسيسة أو خديعة إلا وتلجأ إليها، فهي الشريكة الصادقة والمخلصة للشيطان. والشيطان يدخل إلى الإنسان عن طريق النفس، فيخدعه ويضرُّ به.

إن سر نجاحنا في دنيا الامتحان أيها الإخوة أن نجعل الروح حاكمة ومسيطرة على حياتنا، ونجعل النفس خاضعة لها ومنفذة لأوامرها، ويمكن القول إن السِّر يكمن في تخليص النفس من الأخلاق الذميمة، وإحاطتها بالأخلاق الكريمة، ثم متابعة هذه الحياة الدنيوية وفقاً للعهد الذي قطعته الروح عندما خُلِقَت قبل خلق الإنسان.

وتبيِّن الآية الكريمة الآتية لنا هذا العهد الذي قطعته الروح أمام الله في عالم الأرواح قبل الانتقال إلى عالم المادة والجسم، إذ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

أيها الإخوة المُبشَّرون بالفلاح بعد تزكية النفس!

ثمة أصول وقواعد لتربية النفس والوصول إلى الكمال الروحي، من أهمها الإكثار من النوافل إضافة إلى الفرائض، والإكثار من ذكر الله تعالى، وتطهير القلب.

والقصد من تطهير القلب أن نبذل جهداً لإزالة الغشاوات والحجب المادية حول الروح التي تكلم الله تبارك وتعالى عنها في قوله:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧٢)

ونتيجة لهذه الجهود المبذولة تخضع النفس للروح وتصبح تحت إمرتها وتوجيهها، وهكذا يتم التطهير وضمان بقائه على العهد القديم.

أيها الإخوة، ثمة مراتب للنفس هي: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس الملهمَة، والنفس المطمئنة، والنفس المرضية، والنفس الكاملة. ويمكن تحقيق عودة الذات هذه التي تم وضعها في فطرتنا السليمة الأصلية خطوة خطوة، لذلك علينا أن نرى تجاوز حجب النفس واحداً تلو الآخر خطةً تربوية مستمرة مدى الحياة، لأن الباري سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)

وإذا ما نجحنا في تطبيق هذا المنهج التربوي مدى الحياة، فإننا بإذن الله سبحانه وتعالى سوف نتجاوز تلك المراحل واحدة بعد الأخرى حتى نصل إلى النهاية السعيدة التي أخبرنا بها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ (الفجر: ٢٧-٢٨)

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)

أنقل إليكم في هذا المقام أيها الإخوة هذا التشبيه البليغ والرائع الذي صاغه الإمام الغزالي عن النفس، إذ قال:

"النفس المحرومة من التربية المعنوية كفرس برية هائجة، إذ إن هذه الفرس الهائجة بدل أن تحمل صاحبها وتوصله إلى مبتغاه، تُسقطه عن ظهرها على الصخور وتتسبب بهلاكه. وأما إن كانت فرساً مروَّضةً ترويضاً حسناً، فإنها تحمل صاحبها وتوصله إلى مبتغاه بسلام حتى وإن سلك بها طرقاً وعرة وخطيرة".

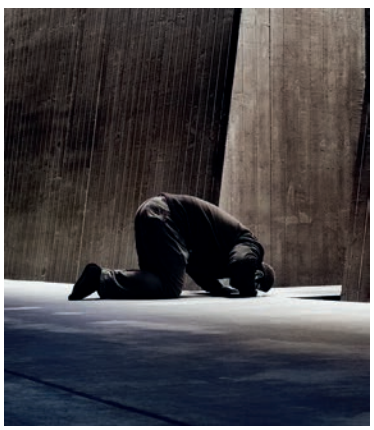

أي إن النفس تستطيع أن تسمو بالإنسان إلى أعلى المراتب بين سائر المخلوقات، كما تستطيع أن تنزله إلى أدنى المراتب، وتوصله إلى أسفل السافلين. فالنفس التي تمتلك هاتين الميزتين، أي القدرة على أن تكون وسيلة للخير إن خضعت للتربية، والقدرة على أن تكون وسيلة للشر إن لم تخضع للتربية، كالسيف ذي حدين. والنفس مناط الروح، فإذا ما أرخى الإنسان لجام النفس وأطلق لها العنان، وتركها تنطلق حيثما رغبت، فإن مصيره الهلاك المحتوم. وأما إن حاول خنقها وقتلها كما يفعل أتباع بعض الديانات الهندية، فإنه سوف يبقى على طريق الحقيقة من دون مركوب. فلا بد إذاً أن تمسك بيدك بلجام نفسك وتستفيد من المركوب الذي منحك الله تعالى إياه!

أيها الإخوة الأعزاء!

ينبغي أن نتذكر دائماً الحقيقة التي أخبر بها رسول الله ﷺ حينما قال:

"المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ". (الترمذي: ١٦٢١)

إن التربية النبوية قد تجلت أساساً بصورة جهاد لا هوادة فيه تجاه النفس، وقد تخلَّص الصحابة الكرام الذين خضعوا ونشؤوا في ظلال هذه التربية النبوية من خصالهم الجاهلية، وبلغوا درجات الكمال ليكونوا قدوة لمن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة.

فلا بد لنا من إطاعة أوامر رسول الله ﷺ وتنفيذ وصاياه بكل صدق وإخلاص، وأن نُخضِع أنفسنا لإرشاده وتربيته، كي نتجاوز عوائق النفس ونتمكن من بلوغ مرتبة الإنسان الكامل.

وأود هنا أن أذكُر الحوار المليء بالعبر والعظات الذي دار بين داود الطائي وأحد طلبته:

ذات يوم قال أحد الطلبة للطائي:

- طبخت بعض اللحم، فهلَّا تشاركني؟

ولما سكت داود الطائي قام الطالب فجاء باللحم ووضعه أمامه. إلا أن الطائي نظر إلى اللحم الموضوع أمامه، وقال:

- يا بني، ما أخبار اليتامى؟ فقال الطالب بصيغة تشير إلى سوء أحوالهم:

- كما تعلم يا سيدي!

فقال داوود الطائي:

- إذاً؛ خذ هذا الطعام وأعطهم إياه!

فقال الطالب المخلص الذي كان يرغب أن يتناول أستاذه من هذه الضيافة التي أعدَّها له:

- ولكن يا سيدي! أنت أيضاً لم تذق اللحم منذ مدة طويلة!

وأصرَّ على رغبته. إلا أن داود الطائي لم يقبل عرضه، وقال:

- يا بني، إذا أكلتُ هذا اللحم فإنه بعد مدة قصيرة سوف يخرج مني، وأما إن أكله اليتامى فإنه سوف يصعد إلى العرش الأعلى حيث البقاء الأبدي!

فهؤلاء الذين تحرروا من حبائل النفس الفانية هم الذين استطاعوا الانعتاق من رِقِّ النفس التي شعارها "اللهم نفسي، اللهم نفسي" ليرتقوا إلى إيثار رسول الله ﷺ الذي كان شعاره "أمتي، أمتي". لقد وصلوا إلى مرحلة متقدمة من الإدراك عرفوا فيها بأنه لا مجال لخلاصهم ونجاتهم إذا لم يبذلوا غاية جهدهم من أجل تحقيق سلامة الآخرين وسعادتهم وطمأنينتهم؛ ولهذا فإنهم يشعرون بأنهم مسؤولون عن مجتمعهم. إنهم يتسوقون من المتاجر التي يقل زبائنها، أي إنهم يبحثون عن اليتامى، وأبناء السبيل، والمحرومين ويشعرون بهمومهم واحتياجاتهم، ويعملون على تلبيتها، ويطوفون في الأماكن التي يخيِّم عليها الحزن والأسى؛ إنهم يضحون بالنعيم الفاني ليشتروا به النعيم الباقي.

وأخيراً، ينبغي أن لا ننسى أيها الإخوة بأننا جميعاً جئنا من عند الله تعالى، وسوف نعود إليه مرة أخرى ولا مناص لنا من ذلك أبداً. وإن المصيبة العظمى التي تحيط بنا في هذه الدنيا إنما هي التعلق بالرغبات النفسية وجعلها معبوداً من خلال الجشع المتمثل بتخصيص كل النِّعم للنفس، ثم الوقوع في تيه الغفلة عن الله تعالى. والسعادة الحقيقية إنما هي القدرة على تزكية النفس قبل حلول الأجل ومجيء مَلَك الموت، واختراق حجب الغفلة، ثم تذوق لذة التقرب إلى الله تعالى. والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ: سمير مرشد

أنفعهم للناس

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩)

يروي احد التابعين الكباروهو أحمد بن مسكين هذه القصة : كان هناك رجل اسمه أبو نصر الصياد، يعيش مع زوجته وابنه في فقر شديد فمشى في الطريق مهموماً لأن زوجته وابنه يبكيان من الجوع فمر على شيخ من علماء المسلمين وهو "أحمد بن مسكين"

وقال له: "أنا متعب. فقال له: اتبعني إلى البحر.

– فذهبا إلى البحر، وقال له: صلي ركعتين فصلي، ثم قال له: قل بسم الله، فقال: بسم الله... ثم رمى الشبكة فخرجت بسمكة عظيمة.

– قال له: بعها واشتر طعاماً لأهلك، فذهب وباعها في السوق واشترى فطيرتين إحداهما باللحم والأخرى بالحلوى وقرر أن يذهب ليطعم الشيخ منها فذهب إلى الشيخ وأعطاه فطيرة، فقال له الشيخ: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

– أي أن الشيخ كان يفعل الخير للخير، ولم يكن ينتظر له ثمناً، ثم رد الفطيرة إلى الرجل وقال له: خذها أنت وعيالك.

– وفي الطريق إلى بيته قابل امرأة تبكي من الجوع ومعها طفلها، فنظرا إلى الفطيرتين في يد الرجل. فسأل الرجل نفسه: هذه المرأة وابنها مثل زوجتي وابني يتضوران جوعاً فلمن أعطي الفطيرتين، ونظرا إلى عيني المرأة فلم يحتمل رؤية الدموع فيها، فقال لها: خذي الفطيرتين فابتهج وجهها وابتسم ابنها فرحاً.. وعاد يحمل الهم، فكيف سيطعم امرأته وابنه؟

– خلال سيره سمع رجلاً ينادي: من يدل على أبو نصر الصياد؟.. فدله الناس على الرجل..

فقال له: إن أباك كان قد أقرضني مالاً منذ عشرين سنة. ثم مات ولم أستدل عليه، خذ يا بني ٣٠ ألف درهم مال أبيك.

– يقول أبو نصر الصياد: وتحولت إلى أغنى الناس وصارت عندي بيوت وتجارة وصرت أتصدق بالألف درهم في المرة الواحدة لأشكر الله سبحانه وتعالى.

– وأعجبتني نفسي لأني كثير الصدقة، فرأيت رؤيا في المنام أن الميزان قد وضع وينادي مناد: أبو نصر الصياد هلم لوزن حسناتك وسيئاتك، يقول فوضعت حسناتي ووضعت سيئاتي، فرجحت السيئات، فقلت:

أين الأموال التي تصدقت بها؟

فوضعت الأموال، فإذا تحت كل ألف درهم شهوة نفس أو إعجاب بنفس كأنها لفافة من القطن لا تساوي شيئاً، ورجحت السيئات. وبكيت وقلت:

ما النجاة وأسمع المنادي يقول: هل بقى له من شيء؟ فأسمع الملك يقول:

نعم بقت له رقاقتان فتوضع الرقاقتان (الفطيرتين) في كفه الحسنات فتهبط كفة الحسنات حتى تساوت مع كفة السيئات.

فخفت وأسمع المنادي يقول: هل بقى له من شيء؟

فأسمع الملك يقول: بقى له شيء فقلت: ما هو؟ ف

قيل له: دموع المرأة حين أعطيت لها الرقاقتين (الفطيرتين) فوضعت الدموع فإذا بها كحجر فثقلت كفة الحسنات، ففرحت فأسمع المنادي يقول: هل بقى له من شيء؟

فقيل: نعم ابتسامة الطفل الصغير حين أعطيت له الرقاقتين وترجح وترجح وترجح كفة الحسنات.. وأسمع المنادي يقول: لقد نجا لقد نجا فاستيقظت من النوم أقول: لو أطعمنا أنفسنا هذا لما خرجت السمكة.

آثار الصدقة

– فيها انشراح الصدر.

– وراحة القلب.

– وطمأنينته النفس.

فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

"مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق شيئا إلا مادت على جلده، حتى تجن بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد ينفق إلا لزمت كل حلقة موضعها، فهو يوسعها فلا تتسع" ويشير بإصبعه إلى حلقه. [البخاري، ٥٢٩٩]

فالمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلَّما تصدَّق اتسع وانفسح وانشرح، وقوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن في الصَّدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبدُ حقيقياً بالاستكثار منها والمبادرة إليها وقد قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن :١٦)

الدكتور مراد كايا

الجوانب الإعجازية في القران الكريم

(٢)

تسليطه الضوء على الاكتشافات العلمية

يوجد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تسلط الضوء على التقدم العلمي والاكتشافات، وهذا من إخبار القرآن الكريم عن الغيب على نحو معجز.

إن غاية القرآن الأساسية هي تثبيت التّوحيد في القلوب وتوجيه وإرشاد الناس، ويقديم كل المواضيع التي تناولها على أساس هذه الغاية الرئيسية، وإلى جانب هذا فإن المعارف والمعلومات التي قدّمها للناس في المواضيع الدّاخلة في ميدان العلوم الطبيعية مطابقة للحقيقة. ولنعرض بعضاً من الأمثلة عليها:

يعطينا الإسلام بعض المعلومات الأصلية عن تناسل الإنسان وتشكل الجنين في الرحم والتي لم يتمكن الطب الحديث كشفها إلا متأخراً. وهذه المعلومات يفصِّلُها القرآن الكريم في الآية ٥ من سورة الحج والآيتين ١١ و ١٣ من سورة المؤمنون.

يعترف البروفسور الدكتور كيث ل. مور في أثره الذي صنفه في علم الأجنة بأن العلم مطابق للقرآن الكريم بل حتى أن القرآن يترأس العلم ويتقدمه بأمثلته وتعاريفه التي ذُكرت فيه وذلك بعدما أوضح الكاتب في أثره المراحل التي يمر بها الإنسان في الرحم وأعقب ذلك بأنه قارنها بما في القرآن الكريم. ونتيجة للأبحاث التي قام بها كيث أعجب ووقع في حيرة في الله تعالى ورسوله ﷺ، ومِن ثَمَّ صدق معجزة القرآن الكريم هذه الواردة من قبل ١٤٠٠ سنة واطمأن لذلك، وقام بإضافة المعلومات التي حصل عليها من القرآن الكريم إلى الطبعة الثانية من كتابه المسمى (Before We Are Born: قبل أن نولد)، وعندما سئل: "كيف توضح وجود هذه المعلومات في القرآن؟" يجيب: "إن ذلك القرآن ليس إلا وحياً أنزل من قبل الله"

لقد تم اكتشاف ازدياد عدد المخلوقات وابتعاد المجرات عن بعضها بسرعة هائلة في السنوات الأخيرة، حيث إن المجرات العظيمة تبتعد عن بعضها البعض مع البعد الكائن بينها على نحو متناسب خطياً، ووفق هذا القانون يوضح أن الكائنات جميعها من أولها إلى آخرها تحت تصرف قوة لا محدودة، فمثلاً: تبلغ سرعة ابتعاد مجرة تبعد عنا ١٠ مليون سنة ضوئية ٢٥٠ كلم في الثانية، في حين مجرة أخرى تبلغ المسافة بيننا وبينها ١٠ مليار سنة ضوئية تبتعد هي الأخرى عنا بسرعة ٢٥٠٠٠٠ كلم في الثانية. ويشار إلى هذ الأمر في القرآن الكريم على هذا النحو:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات، ٤٧)

إن ربنا عز وجل يحفظ الدنيا من النيازك وهي قطع تظهر من انفجار النجوم التي انتهت حياتها في السماء. وإن كوكبا المشتري وزحل بجاذبيتهما الكبيرة هما في موقع حارس لا يسمح للكثير من الأجسام بالمرور والتي قد تُلحِق الضرر بكوكب الأرض. وقد تظهر بعض النيازك التي تعبر هذين الكوكبين وتقترب من الأرض، وهذه المرّة يظهر أمامها حام آخر وهو القمر، وبما أنه ليس له غلاف جوي فإنّ كلّ نيزك ساقط عليه يرتطم بسطحه، ويمكن رؤية الفوهات الناجمة عن الارتطام بسطح القمر حتى بواسطة منظار صغير.

وأما النيازك المتجاوزة حاجز القمر تبدأ بالاحتراق عند اجتيازها الغلاف الجوي في حال لم تكن كبيرة جداً، فتتفتت النيازك الناجمة عن الحادثة التي نطلق عليها اسم: (الشهب) في طبقة الغلاف الأوسط إلى ذرات صغيرة كالغبار قبل وصولها السطح، ثم تتحول كل واحدة من هذه الذرات الصغيرة إلى نواة لحبيبات المطر. إن الغلاف الجوي يحمي الأرض من الإشعاعات الخطيرة الآتية من الفضاء أيضاً. ويشار إلى هذه الحقائق في القرآن الكريم:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء، ٣٢)

ومما مر يتضح أن القرآن الكريم في الوقت الذي يقوم فيه بتنظيم أفعال الإنسان وسلوكياته، يقوم من جهة أخرى بلفت الأنظار إلى أسرار الكائنات ويحثنا على قراءتها ككتاب وإظهار ما تحتويه من الأسرار بعد دراستها. لقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر، ٢٢)

ولقد اكتشف إلقاح الرياح للنباتات والسحب بعد انقضاء عصور على نزولها. وفي الآيتين ١٩ و٢٠ من سورة الرحمن:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾

إن الحقيقة المبينة في هذه الآيات هي معجزة للقرآن الكريم في عصرنا هذا، حيث ثبت في الاكتشافات المؤخرة وجود سد مجهول أو ستارة غير مرئية في مضيق جبل طارق يحول دون اختلاط ماء بحر الأبيض المتوسط بماء الأطلسي، وبهذا فلا يختلط ماء كل من البحرين محافظاً على تكوينته الأصلية، وقد أثبت القبطان كوستيوا أنه فيما بعد عُثِر على مانع وحاجز في نقاط اجتماع ماء في كل البحار التي تختلف في التركيبات.

وقد رأى أ. براون آيات متعلقة بالبحر، وبعد التفكر في الآيات التي تتحدث عن استخراج اللحم الطازج واللؤلؤ والمرجان من الماء المالح والعذب، وتسيير الرياح السفن الشراعية، سأل أحد المسلمين القاطنين في أحد سواحل البحر في الهند بعد وصوله إليها: "أرَكب نبيكم البحر وسافر فيه؟" فأجابه: "لا فما نعرفه أنه لم يسافر في البحر"، فأيقن البحار الانجليزي أن القرآن لم يؤت للنبي ﷺ من طريق غير الوحي، وأسلم بعدما وجد أن كلام القرآن الكريم أصح وأدق معنى بعد أن قارن ما فيه بالتوراة والإنجيل، ثم ذهب إلى مصر والتقى بالعلماء.

يقول الأستاذ في الرياضيات غاري ميللر:

"كانت ثمة نظرية معروفة تتعلق بالذرة قبل نبوة محمد، كان قد طرحها ديموكريتوس فيلسوف يوناني، وقد أوضح من أتى بعده أن المادة مكونة من جزيئات صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة ولا تنقسم تسمى بالذرات، ولكن العلم الحديث أثبت أنه بإمكان الذرة الجزء الأصغر في المادة والحاملة لخصوصيات المادة نفسها الانقسام والتفرق بالشكل نفسه، وهذه المعلومة تعد اكتشافاً حصل نتيجة التطورات الجارية في العصر السابق فهو حقيقة علمية، إلا أنه مما يلفت الانتباه أن هذه المعلومات قد أعلمنا بها قبل ١٤ عصراً في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس، ٦١)

تتحدث الآية عن مخلوقات أصغر من الذرة، وما من أدنى شك في أنه لا يمكن أن يكتب هذا أي كاتب عربي في هذا الوقت؛ لأن ما يُعرف حينها بصغره عندهم هو الذرة، وهذا دليل على أن القرآن لن يتقلص ولن يندرس على مدى الزمن."

ونفس وما سوّاها

خديجة يغَنلر

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

"لما كانت ليلة من الليالي قال لي رسول الله ﷺ: "يا عائشة، ذريني الليلة أتعبد لربي". قلت: والله لأحب قربك، وأحب ما يسرك.

فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه، وجعل يبكي ثم رفع يديه وجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض. فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال رسول الله ﷺ:

"أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد أنزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"، ثم قرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ – ١٩١)

فهذا هو الكلام العظيم الذي جعل قلب النبي عليه الصلاة والسلام يضطرب، وأدمع عينيه المباركتين! فماذا كان السر الذي أبكى رسول الله عليه الصلاة والسلام بهذه الصورة ودفعه إلى قول: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"؟ هل هو عدم تفكرنا وتبلد مشاعرنا؟ أم هو أخطاؤنا الكثيرة التي ارتكبناها؟ أم عدم شكرنا للنعم الكثيرة التي تفضل ربنا بها علينا، أم الثغرات في توحيدنا وإيماننا؟ أم أنه عدم تسليمنا القلبي بقضاء الله وقدره خيره وشره عندما نقول آمنا به بلساننا؟ أم إنه إصرارنا على الخطايا والمعاصي مع علمنا بأننا في دار الامتحان؟ أم هو غفلتنا عن الحساب الذي سوف نقدمه بين يدي الله تعالى مالك يوم الدين؟

تُرى ما الذي أبكى رسول الله ﷺ هكذا؟

أهو ابتلاؤنا بمرض الأنانية والتفكير بالذات، والتغافل عن الآخرين من حولنا؟ أم هو ابتعادنا السريع عن الرزق الحلال، وافتتاننا بالرفاهية والمظاهر التي سحرتنا؟ أم هو بيوتنا الفاخرة التي تضاهي القصور؟ أم هو تغافلنا عن سماع كلام الله تعالى الداعي إلى عدم الإسراف، إذ يقول: (إن الله لا يحب المسرفين)؟ أم كثرة

إضاعتنا لأوقاتنا بأمور لا طائل فيها، وإفناؤنا لعمرنا باللهو والابتعاد عن الاستقامة؟ أم هو عباداتنا التي لا تتجاوز أن تكون قشوراً ومظاهر فارغة من الداخل من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج؟ أم عيوننا التي تنظر ولا ترى، وآذاننا التي تصغي ولا تسمع؟ أم قلوبنا التي لا ترتجف بتلاوة كلام الله، وكأنها غلفت وأُقفلت بعشرات الأقفال؟ أم عبوديتنا السطحية الناقصة التي نخرتها نفوسنا والشيطان؟ أم أحوالنا التعيسة المفجعة نحن أمة آخر الزمان؟

لقد قال النبي ﷺ ذات مرة لأصحابه الكرام:

"والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم". (متفق عليه)

من الواضح أنه قد رأى أحوال أمته الكارثية المفجعة من بعده. لقد سمع الدنيا قبل أربعة عشر قرناً وهي تنادي على الناس في آخر الزمان من الجهات الأربعة: "هيت لكم". لقد علم عجز أمته في الجهاد الكبير المتمثل بالمحافظة على القلب، والنجاة من النار.

فتعال أيها الإنسان، تعال وأمسك بيد الرأفة الممدودة إليك من النبي عليه الصلاة والسلام. تعال ولا تدفع النبي إلى مزيد من البكاء والدموع..

يا أيها الإنسان الذي شرَّفَكَ الله تعالى على الكائنات، وخلقك في أحسن تقويم، يا صاحب العقل والإدراك، يا خليفة الله في الأرض! فكِّرْ لمَ خُلقت، ولمَ أُرسلت إلى هذه الدنيا؟ لمَ وُضِعَ هذا النظام العظيم الذي يسود في الكون، وجميع المخلوقات، لمَ وُضِعَ كل ذلك في خدمتك؟ إلى أين تسير؟ فكِّر وأنِر بنور الوحي عقلكَ وقلبك الذي أبكى النبي عليه الصلاة والسلام.

حياتك ليست إلا أيام معدودات. فالأمس قد جاء ومضى ولم يبق إلا حسابه، وأما الغد فمجهول فقد يأتي وقد لا يأتي. فاشغل نفسك بيومك هذا، ووقت العبودية هو هذا الوقت، فحذارِ من تأجيل عبوديتك. فكما أنك جئت إلى هذه الدنيا دون أن يسألك أحد، فإنك سوف تُؤخَذ من هذا العالم في وقت مجهول دون أن تُستَشَار. سوف تفارق هذه الدنيا التي لم تستطع أن تجد فيها متسعاً لنفسك، ولآمالك، وخيالك، ومخاوفك، وما قمت به من أعمال وما لم تتمكن من القيام بها. سوف تفارقها لتتمدد في مكان لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً واحداً. لا شك أن الأعمال التي خططت لإكمالها وإنهائها سوف تبقى ناقصة من بعدك، وأن الندامة في القبر الذي فتحت عينيك فيه سوف تسيطر على كل كيانك. ولكن لا أنت تستطيع العودة إلى الدنيا، ولا الدنيا تبحث عن وجودك! فلن يبقَ لك إلا يديك التي تمدهما إلى الملائكة، فهل هي فارغة أم ممتلئة؟ أيها الإنسان الذي تخشى من الحساب، اعلم أنك إن لم تدقق في حساباتك، وأضعتَ المكيال فإنك مقبل على الخسران المبين في الحياة الأبدية... ففكِّرْ بحياتك القصيرة هذه على ضوء الوحي الإلهي، وأدركْ حقيقتها، وابذلْ جهدك لعيش حياتك وفقه، فالله تعالى قد سخَّرَ لك كل شيءٍ ومكَّنَك من معرفة الخير والشر:

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٦ – ٨)

أيها الإنسان الذي أكرمكَ الله بأسمى المزايا والخصال، أيها المسافر في رحلة إلى أعلى عليين، أدركْ نفسكَ قبل أن تفوتك الفرصة، اسجدْ لربك، ضعْ جبهتك على الأرض، وأقررْ بلسانك وصدِّقْ بقلبك، وادعُ: "يا رب، إنك لم تخلق هذا الكون عبثاً، فها نحن نسبحك، واستسلمنا لإرادتك. يا رب، نشكرك على كافة نعمك التي أكرمتنا بها من إحسانك وجودك. اللهم إنا عاجزون فاغفر لنا واعفُ عنا، وطهِّرْنا، وارحمنا، واهدِنَا إلى سواء السبيل".

التدين في المدينة

د. لطف الله جيبيجي

يرى بعض الناس أن التدين أمرٌ يليق بأهل القرى، ويرى آخرون أن الأفضل يوجد دوماً في المدينة، لذا فإن التدين الأفضل تدين أهل المدينة.

والسبب في اختلاف وجهتَي النظر يرجع إلى المعنى الذي نسبغه على الدين وعلى التدين... إذا عرَّفنا المتدين بأنه مسلم يتمتع بعمق التفكير وذو خبرة يعرف بماذا يؤمن ولماذا،وينعكس ما يؤمن به على شخصيته وحياته، ويتمتع بثقافة وتجربة متماشية مع ما يعتقد، وأنه إنسان مخلص ودود ذو شخصية متزنة يمكن الوثوق به، واثق من نفسه يتصرف باتزان؛ فنستطيع القول عندئذ إن احتمال العثور على هذا النوع من التدين في المدينة هو- بلا شك ـ عال جداً، لأن هذا النوع يمكن الحصول عليه بالتعليم والتعلم. لكن إذا نظرنا إلى الدين من زاوية مادية إلحادية واعتبرنا أنه أمر لا يليق كثيراً بإنسان العصر، عندها يفقد الدين رواجه ويعدُّ إيماناً مليئاً بالخرافات البدائية الخارجة عن حدود العقل والمنطق، وحينها سنعتبر أن الدين والتدين يليقان بالناس الذين يعيشون في القرى والجبال والأرياف البعيدين نوعاً ما عن الحضارة.

إن الدين في الحقيقة موجود داخل كل إنسان سواء كان من سكان المدن أم القرى، إلا أن المدن كانت المركز الأساسي ونقطة انطلاق التبليغ، لهذا كان جميع الأنبياء من سكان المدن، ويخبر الله ﷻ النبي ﷺ عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ (يوسف: ١٠٩)

أي كان جميع الأنبياء ومنذ القديم رجالاً متحضرين من سكان المدن، ولم يكونوا بدويين رحَّلاً أو من سكان الجبال أو القرى؛ وإنما أناساً شجعاناً ينحدرون من المدن لأن النبوة مصدرُ أكبر الحضارات، في حين أن بيئة القرى والبدو الرحل لم تكن البيئة الملائمة لصفات

النضج والرقة والقدرة على الاجتذاب وجميع الخصال الحميدة الأخرى التي يجب وجودها عند الأنبياء. وأهل المدن يكونون أكثر قدرة على الإدراك والفهم لما يتمتعون به من معرفة وخبرة. والعلاقات بين الناس في المدن أكثر تعقيداً وكثافة، بينما تسود الرتابة في الحياة في الصحراء والقرى، كما أن الاحتياجات هناك محدودة ومحددة، وتبليغ رسالة الأنبياء أمر متعدد الأبعاد ويتطلب الإجابة على مطالب الناس في كل مكان وفي جميع الحالات، وكذلك تلبية متطلبات الحياة اليومية من مختلف النواحي.

لهذا فإن الأنبياء بعثوا أولاً إلى المدن، وبدؤوا في تبليغ الرسالة التي كلفهم بها الله تعالى عبر الوحي إلى الناس انطلاقاً من المدن بل وحتى المدن الكبرى. وهكذا يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ (القصص: ٥٩)

وفي آية أخرى يقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

(الأنعام: ٩٢)

أي أن الله تعالى أشار إلى ضرورة أن تبدأ الدعوة من "أم القرى" في شبه الجزيرة العربية؛ أي مكة المكرمة التي تعتبر مدينة كبرى.

واللافت للانتباه أن القرآن الكريم يذكر مكة التي ولد فيها النبي ﷺ وترعرع بـ "أم القرى". وهذه الكلمة مرادفة لكلمة (الحاضرة) أو (ميتروبول) التي تعني باليونانية القديمة المدينة الكبيرة المركزية بما حولها من أحياء مجاورة وقريبة والمساحة الكبيرة الواقعة تحت تأثيرها. كلمة مدينة وكلمة مدنية مشتقتان من الجذر نفسه، لأن المدينة هي مركز الحضارة ولهذا سميت بالمدينة. لهذا عندما هاجر النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى "يثرب" أطلق على يثرب اسم المدينة لأنها كانت ستصبح مركز التسامح والتفاهم والعدل والأخوة والقانون ومنها تفتحت براعم الحضارة الإسلامية.

والحضارة تقدم للإنسان حياة تعتمد على القيم والمعتقدات وهذه القيم والمعتقدات تحيط بجميع نواحي الحياة المادية والمعنوية. وتختلف حضارة عن أخرى بفلسفتها ونمط الحياة الذي تقدمه للبشر.

إن كلمة "بداوة" عكس كلمة "الحضر" وفي حين تعني كلمة حضري "سكان المدينة" فإن كلمة "بدوي" تعني سكان البلدة أو الشخص الذي لا يسكن المدينة، بل القرى أو الجبال أو الصحراء ويكون أحياناً "من البدو الرحل".

إن حياة سكان القرى محدودة في الغالب، ولا تتعدى الخيم التي يقطنونها والحيوانات التي يرعونها والأماكن التي يتجولون فيها في الأرياف، لهذا فإنه من الطبيعي أن تكون عوالمهم وآفاقهم الفكرية محدودة، وبعضهم يكونون- وفق التعبير القرآني- أشد كفراً ونفاقاً من أهل المدن. وهذا يرجع إلى صعوبة ظروف معيشتهم وبعدهم عن المدن والأشخاص الذين سيعلمونهم الدين والإيمان. وتكون طباعهم أكثر خشونة من سكان المدن، ويكونون أكثر شكّاً لأن معيشتهم أكثر صعوبة، وكما يقول المثل- إن

الحضارة تقدم للإنسان حياة تعتمد على القيم والمعتقدات وهذه القيم والمعتقدات تحيط بجميع نواحي الحياة المادية والمعنوية.

وتختلف حضارة عن أخرى بفلسفتها ونمط الحياة الذي تقدمه للبشر.

صح التعبير-: "إن من تلدغه الأفعى يخشى الحبل." وأهل القرى لا يصدقون على الفور ما يُقَال لهم لكنهم لا يقولون ذلك بشجاعة وإنما يلجؤون إلى النفاق لحماية أنفسهم، لأن معرفتهم وآفاقهم الفكرية غير كافية لفهمهم ما يقوله الأنبياء، وجهلهم في هذه الأمور أمر طبيعي، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه فقال:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)

فهم يجدون صعوبة في الإيفاء بمتطلبات الإسلام حيث يرون ـ على سبيل المثال ـ في إنفاق المال والصدقة في سبيل الله خسارة، ولا يرون الأمر مكسباً أو ربحاً لأنهم لا يبذلون ذلك المال من أجل إرضاء الله ﷻ وحده ولا يرجون ثوابه تعالى. لذا فإن الأعراب يتمنون أن تحل المصائب بالمسلمين وألا يكونوا هم الأعلى ليتخلصوا من أداء هذا الأمر الذي يرونه عبئاً لا طائل وراءه. بيد أن ذلك لا ينطبق عليهم جميعاً، فكما تذكر الآية الكريمة هنالك من يؤمن بالله ﷻ وبالآخرة إيماناً خالصاً، ويعد الصدقات والنفقات التي يبذلها في سبيل الله ﷻ خيراً كبيراً وزاداً له في الآخرة، وهناك بدو وأعراب ينفقون انطلاقاً من هذا الإيمان. إن المناخ الصعب الذي يعيش فيه سكان القرى والأرياف يسهم بدرجة كبيرة في هذه الأحوال السلبية التي يعيشونها، والأمر الذي يجعل سكان المدن في مرتبة أعلى من سكان القرى يرجع أيضاً إلى المناخ الذي يعيشونه في المدن، فالمناخ الاجتماعي والاقتصادي لحياة المدينة يجلب معه المعرفة والخبرة والثقافة والسعة والرفاه.

أجل؛ إن القرآن يذم الأعراب وأهل القرى والجبال، إلا أن التحضر وحياة المدن ليست بالأمر الهيِّن... لأن التدين والعدل والتسامح ومراعاة الحلال والحرام واللقمة الحلال والكسب الحلال وكذلك مراعاة حقوق الآخرين وصون العين واللسان والقلب والحفاظ على الاستقامة أمر أصعب في المدينة، كما أنه لا يمكن المساواة بين إدراك القروي للدين وعيشه له، وبين تدين ابن المدينة، فخصائص كل منهما مختلفة.

لكن ثمة حقيقة يجب الإشارة إليها ألا وهي أن التدين في المدينة لا سيما في أيامنا هذه يبدو أمراً أكثر صعوبة، فالمدينة تقدم للإنسان إمكانيات لا حصر لها، لكنها وفي نفس الوقت تضع أمامه العوائق، والإنسان قد يستخدم تلك الطاقات ليسمو بروحه أو قد يتعثر بالعوائق ويهبط إلى الدرك الأسفل... لهذا فإن "التدين" اليوم في حياة المدينة في تزايد لكن ومن جهة أخرى نرى في المدينة ابتعاداً عن الجوهر وتغرباً عن الذات وانحلالاً معنوياً.

فإنسان المدينة قد يسأم أحياناً من انحلالها فيتجه إلى التدين للاحتماء بدرعه؛ أي إن الهوس المفرط بالدنيا يثير خوف إنسان المدينة وهو ما قد يعيده إلى رشده. ولعل إنسان القرية لن يشعر بهذه

صفوة الكلام أن التدين اليوم في المدينة أو في القرية على حد سواء أمر صعب، وفي الواقع أصبح التدين أمراً عسيراً في كل زمان وفي أي مكان. ولا تستطيع إلا قلة قليلة من الناس اليوم أن تتحمل بإخلاص وبصدق المصاعب والتحديات التي يتطلبها التدين وهم يحاولون أن يكونوا عباداً صالحين في حياتهم، سواء من سكان القرى كانوا أو المدن.

المخاوف أو تلك الحاجة. وهذا بلا شك لا يعني أن أهل القرى أكثر نقاءً وصفاءً من أهل المدن. فالعالم بدأ يتحول إلى قرية صغيرة مع تطور العصر ووسائل الاتصال، وبفضل أجهزة التلفاز والأقمار الصناعية والهواتف المحمولة زالت الفروق بين القرية والمدينة وبات سكان القرى يرون كل شيء ويطلعون على كل جديد، وباتوا جزءاً من كل أنواع انعدام الأخلاق، ولم يعد هناك في كثير من النواحي ما يميز بين المدينة والقرية؛ لهذا أصبحت قرانا ـ مع الأسف ـ تبدو راغبة بفقدان جوانبها الإيجابية وتُشاطِرُ المدنَ سلبياتِ العصرَ.

وعلينا في حديثنا عن التدين في المدن عدم إغفال نقطة هامة، ألا وهي أن مدينة الأمس ليست كمدينة اليوم، فقد أصبحت شروط الحياة في المدينة الآن أكثر صعوبة في بعض النواحي، وتدفع الإنسان بشكل أكثر إلى ارتكاب الأخطاء. واليوم تقدم المدينة لسكانها خيارات لامتناهية تجرهم إلى "الذنوب" وتسهل ارتكابها، فصار التدين في المدينة أكثر صعوبة، وهذا أحد أهم الفروق بين الأمس واليوم...

وإذا ما رجعنا قليلاً إلى الوراء في تاريخنا، نرى أن سكان المدينة كانوا فيما مضى مجتمعاً أكثر تلاحماً، وكانت بينهم شخصيات يحبونها وعلماء أفاضل، وكان يفكر بعضهم ببعض، وعندما تقع مشكلة ما كان هؤلاء النخبة يتدخلون بإحسان ورحمة لحلها.

وعندما تراجع دور هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يلعبون دوراً إرشادياً، بات الناس وحيدين مع مشاكلهم، وأصبحوا أفراداً بعد أن كانوا جماعة ولم يعودوا قادرين على تشاطر الخيرات وتعميمها، أو تشاطر الهموم وتصغيرها. وكان من يهاجر من القرية إلى المدينة سابقاً يذوب في هذه البوتقة، لكنه هو أيضاً أصبح في حاله. وهكذا نما في كثير من الأحيان مفهوم التدين غير العميق، وإذا ما أضيف إليه الغنى اختفى التواضع والاقتصاد واحترام الآخرين، وظهر خليط عجيب من التدين الممزوج بالإسراف والبذخ والجري وراء كل طراز جديد. بعبارة أخرى بدأت رموز نمط الحياة الغربية المستقاة من الحضارة الرومانية واليونانية تسيطر على تديننا في المدن، وصار ما كنا نسميه في الماضي إسرافاً أمراً اعتيادياً في نظرنا.

وصفوة الكلام أن التدين اليوم في المدينة أو في القرية على حد سواء أمر صعب، وفي الواقع أصبح التدين أمراً عسيراً في كل زمان وفي أي مكان. ولا تستطيع إلا قلة قليلة من الناس اليوم أن تتحمل بإخلاص وبصدق المصاعب والتحديات التي يتطلبها التدين وهم يحاولون أن يكونوا عباداً صالحين في حياتهم، سواء من سكان القرى كانوا أو المدن. إنها دنيا الامتحان، بعضهم يُمتَحَن بالقدرات والآخر بالعوائق، وكل من الامتحانين له نواحيه الصعبة، إلا أن الذين يمتحنون بالفقر والحرمان يكونون في معظم الأحيان أكثر نجاحاً ممن يمتحنون بالمال والسعة؛ إذن علينا النظر إلى كيفية حياتنا ومدى إخلاصنا في تديننا بغض النظر عما إذا كنا نعيش في مدينة أو في قرية.

> أهل المدن يكونون أكثر قدرة على الإدراك والفهم لما يتمتعون به من معرفة وخبرة. والعلاقات بين الناس في المدن أكثر تعقيداً وكثافة، بينما تسود الرتابة في الحياة في الصحراء والقرى، كما أن الاحتياجات هناك محدودة ومحددة، وتبليغ رسالة الأنبياء أمر متعدد الأبعاد ويتطلب الإجابة على مطالب الناس في كل مكان وفي جميع الحالات، وكذلك تلبية متطلبات الحياة اليومية من مختلف النواحي.

طريق الحق أدق من الدقة

من دروس
الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة: ٧٥-٨٢)

وقد حذر النبي ﷺ بشدة مما ستتعرض له الأمة في آخر الزمان فقال:

«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة .

قيل: ما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي» (رواه ابن داود والطبراني)

كم في الناس من يُظن أنهم من الأولياء وأرباب القلوب، ويُنظر إليهم على أنهم من أهل التصوف وهم في الأصل ليسوا من أهل الصدق في توجههم إلى الحق سبحانه وتعالى. حيث أن قلوبهم ميالة إلى أهل الغفلة، وأنفسهم تهوى وتهفو إلى شنيع أفعالهم. وإنهم إذا ما دعوا إلى ما تهوى إليه أنفسهم ويشبع شهواتهم ورغباتهم سارعوا إلى الإجابة، وإذا ما دعوا إلى الحق استجابوا كرهاً وخشية أن يوصموا بالكفر والفسوق. فمثل هؤلاء ليس لديهم صدق وإخلاص على طريق الحق. إنهم يكتبون بأيديهم ما تمليه عليهم أهواؤهم بغض النظر عن جهلهم، ثم يقولون أنه الحق. فهؤلاء ضلوا عن الهداية وأضلوا غيرهم.

على السائر في طريق الحق الامتثال لكل ما يأمره به الحق والتمسك في سبيل الوصول إلى الله تعالى، وعدم الانخداع بظاهر الأحوال، وعدم الانجرار خلف مكائد النفس، وأقوال الجاهلين، والتحلي بالحذر واليقظة والبصيرة في كل تقلباته. إن طريق الحق أدق من الدقة وأقوم من المستقيم. وإن أجهل الناس من يضيع وقته سدى ولا يعمل على إصلاح خصال نفسه رغم علمه بها ورؤيته لها، ولا يسعى للوصول إلى الحق ﷻ.

العشق الحقيقي

من دروس
الشيخ موسى طوبّاش

إن الدنيا تتحول في الواقع إلى جنة حقيقية في عيون المحبين الحقيقيين، إذ أن قلوبهم تمتلئ بمحبة الله تعالى بحيث لا ترى ولا تعتبر أي شيءٍ مهما صغر عبثاً. إنهم لا يزالون يحبون، ويحبون، ثم يزيدون فوق الحب حباً حتى لا يجدون الطمأنينة والسكينة إلا في ذكر كلمة الحب. وإذا بلغت المحبة ذروة كمالها فإنهم حينها لا يحبون إلا ما يحبه الله. فلا يحبون من يبغضهم الله من المشركين وأعداء الدين، وإنما يبغضونهم لبغض الله تعالى لهم ويتخذونهم أعداءً.

قيل أن المحبة الحقيقية تثبت بثلاثة أمور:

١. تفضيل المحب كلام المحبوب على كلام غيره.

٢. تفضيل المحب صحبة المحبوب على صحبة غيره.

٣. تفضيل المحب إرضاء المحبوب على إرضاء غيره.

وسئل أحد العلماء: من العاشق وما حاله؟ فقال: قليل معاشرة الخلق، كثير الاختلاء بربه. كثير الصمت، دائم التفكير. إذا نظر لا يرى، وإذا نودي لا يسمع، وإذا كلم لا يفهم. لا يحزن إذا أصابته مصيبة، ولا يبالي إذا جاع. رث الهيئة. لا يخشى أحداً غير الله. يناجي ربه في الخلوات والأسحار، ولا ينازع أهل الدنيا في دنياهم.

من ادعى ثلاثة دون ثلاثة فهو ضال ومخدوع:

١. من ادعى تلذذه باتباع ما شرعه الله، ولم يدع حب الدنيا.

٢. من ادعى أن أعماله إنما لمحبة الله، واستحسن تعظيم الناس له.

٣. من ادعى محبة الله سبحانه وتعالى، وغفل عن تزكية وتربية نفسه.

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الحب:

- الزاهدون يأكلون في الجنة، والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا. والمحِبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة.

- طعامهم وشرابهم أُنسهم وقربُهم من ربهم عز وجل ونظرهم إليه.

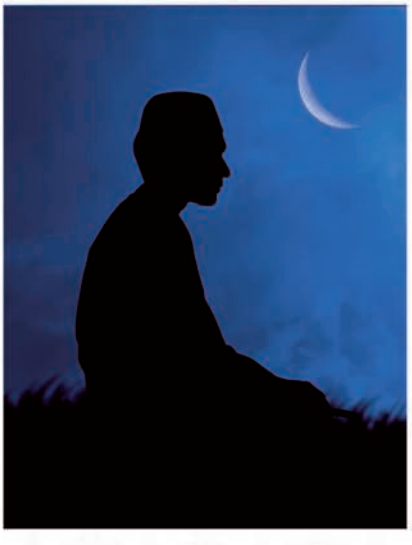

- باعوا الدنيا بالآخرة، ثم باعوا الآخرة بربهم سبحانه وتعالى رب الدنيا والآخرة.

- الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه، وأرادوه دون غيره. فلما تمَّ البيع والشراء غلب الكرم فرد عليهم الدنيا والآخرة موهبةً، وأمرهم بتناولهما.

فأخذوهما بمجرد الأمر، مع الشِّبع، بل مع التخمة والغنى عنهما. فعلوا ذلك موافقة للقدر، وحسن أدب مع القَدر. قبلوا وأخذوا وهم يقولون:

وإنك لتعلم ما نريد. تعلم أن قد رضينا بك دون غيرك. ورضينا بالجوع والعطش والعُرْي والذل والمهانة، وأن نكون على بابك مطروحين.

لما رضوا بذلك، وقرّروا مع نفوسهم الطمأنينة عليه نظر إليهم نظرَ الرحمة، فأعزّهم بعد ذلهم، وأغناهم بعد فقرهم، ومنحهم وقرَّبهم منه دنيا وآخرة.

هؤلاء قلة القلة. هؤلاء المرشدون الكاملون الذين وصلوا ذروة الكمال.

عثمان نوري طوبّاش

نهضة الأمم وِفق المنهج القرآني

أوضح «ابن خلدون» في كتابه "المقدمة" الذي له ماهية كلاسيكية بين المؤلفات الإسلامية، القوى المادية للأمم والأسس المعنوية لها كالإيمان والأخلاق، وحللها بشكل مفصل. وأثبت «ابن خلدون» بمهارة كبيرة أن العوامل المعنوية هي التي تشكل الصف الأول بخصوص طول أو قصر الفترة الزمنية للدولة، أي الفترة بين ظهورها وحتى انهيارها. وعند مطالعة الأمر وتقييمه بشكل محايد سنجد أنه من اليسير مشاهدة أهمية الدور الذي لعبته العوامل المعنوية في حياة الأمم أو انهيارها.

إن الأمم تعمل على استمرار حياتها على ساحة التاريخ من خلال عناصر الدين واللغة والمشاعر التاريخية. والغاية من الدين والخلقة والفطرة هي أنها تمثل مجموعة قوانين إلهية أعدت لتنظيم الحياة بين الحياة والموت، لتكون وسيلة لسعادة العبد في الدنيا والآخرة.

فاللغة وسيلة للتعبير عن الحق والحقيقة، أما التاريخ فهو الشعلة التي تضيء للأمم طريق المستقبل بتحليل وتثبيت أسباب الأحداث، التي عاشتها الإنسانية في إطار هذين العنصرين، وتحليل نتائجها.

ولهذا وضعنا نصب أعيننا أن هذه العناصر لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض، فاجتهدنا هنا أن نعرض لقرائنا المحترمين مجموعة من العِبَر والحِكَم من خلال الشخصيات، التي هي بمثابة النصب التذكاري في تاريخنا.

إن مجرد ترميم الآثار المادية لأجدادنا وهي أصبحت أطلالاً، ليس كافيًا لجعلنا جديرين بأن نكون أصحاب هذا الميراث الديني واللغوي والثقافي، الذي تركه أجدادنا لنا كأمانة مقدسة. بل علينا أن نعمل على إحياء هذه الحضارة وهذه الروح، ونقلها إلى الأجيال القادمة. فإنَّ لغتنا التي كانت أساس الحضارة العثمانية عُقِمت وخُرِّبَتْ، لكي يجردونا من الثقافة الإسلامية، نعم إنهم جعلوها عقيمة بشكل لا تتيح فرصة التمكن من التفكير الجدي.

وإذا لم نعمل على إنقاذ لغتنا فإنه لا يمكننا إنقاذ هذه الأمة من هذه النزاعات المختلفة الكثيرة المسلطة

على رؤوسنا؛ لأن الناس يفكرون بالكلمات، ولا يمكن أصلاً الانفتاح على أفق الفكر الإسلامي المتعمق بلغة متخبطة وناقصة في مفهومها وكلماتها التي تعبر عنها.

وإذا لم نَفعل ذلك، فلا يمكن ظهور ذلك الفكر الذي هو الدافع الأصلي للحركات، ولا يمكن وصوله إلى مرتبة جادة، ولهذا لم نلتفت ولم نهتم أصلاً فيما نكتبه بِتلك اللغة المزوّرة التي تقدم مفهومًا مخالفًا لطباعنا وثقافتنا ومشاعرنا القومية.

ومن ناحية أخرى يجب علينا معرفة تاريخنا بهويـّته الحقيقية، وإلا فإننا لن نتمكن أبدًا من تقديم تلك الحضارة العالمية بشكل صحيح. وذلك بسبب الأعمال، التي كتبها المؤرخون المحليون من أصحاب النوايا السيئة، والمؤرخون الأجانب الذين عُرِفُوا بعداوتهم للإسلام، ولا يمكننا معرفة ماضينا بالشكل اللائق وتقويم مستقبلنا من خلاله.

ولهذا فإن اغتنام ميراثنا التاريخي الذي تركه أجدادنا المشرفون، وجعل هذا الميراث ينعكس على إدراك وشعور أبسط فرد في أمتنا لَيُعَد وظيفة دينية وقومية.

والتاريخ يشهد على أن الأمم والأفراد ينظّمون حياتهم في ضوء التجارب التي عاشوها، والتاريخ هو ذاكرة الأمة، ونتاج التجارب القومية. ولهذا فإنه كما أن الفرد لا يستطيع العيش بدون تلك التجارب التي عايشها، فإن الأمم أيضًا دائمًا تحتاج إلى إيقاظ وإرشاد الأحداث التاريخية السابقة.

إن الصعود والهبوط في أقدارَ الأمم، إنما يعني مجموعة متراكمة من التجارب، التي ستنقل إلى مستقبلها. ومقارنة أسباب ونتائج تلك التجارب القديمة بشكل سليم مع الأحداث الجديدة، تضيء المستقبل للأمم.

و إذا تعرفت الأمم على تاريخها الحقيقي وعلى مرشدها المادي والمعنوي وقدّرهما حق تقدير، فإنها تكون بذلك الأمة المتحضرة العظيمة. وإذا الأجيال الجديدة تعرفوا على تاريخهم بشكل أفضل من تواريخ الآخرين، واعتبروا بالماضي فلا داعي للقلق حينئذ من المستقبل.

وإذا تربى ونشأ جيل يعرض عن تاريخه، لا يتعرف على مرشده المادي والمعنوي، وتغرّب من داخله، وأصبح وارثًا منكرًا لجميل هذا الميراث العظيم، ويخوّن أبطال ماضيه، ويجعل الخونة أبطالاً، فإن هذا – بلا شك– سيجعل المستقبل مظلمًا كئيبًا. لأن مستقبل من لا يستندون إلى الماضي، لا يكون آمنًا أبدًا، ولهذا يجب أن تمتد جذورنا إلى الماضي، وفروعنا إلى المستقبل.

ومن الخطأ الكبير فهم علم التاريخ على أنه مجموعة مجردة من الوقائع الجافة، بل على النقيض من هذا، فعلم التاريخ علم مبارك يوضح الأرضية الأصلية للصواب والخطأ والحق والباطل في حياة المجتمعات الممتلئة بالمفاجآت والمغامرات.

علينا أن نتعرف على تلك الأرضية بشكل سليم وأن نستخرج منها العِبر والدروس اللازمة حتى نستطيع تنظيم حال المجتمعات أكمل التنظيم ونقارن بين الأسباب والنتائج التي يضعها التاريخ أمامنا.

ولهذا فإن كتابنا العظيم القرآن الكريم نقل للإنسانية العِبر والحكم من الأحداث المختلفة الإيجابية أو الأحداث السلبية التي عاشتها المجتمعات الماضية.

ومن ذلك، على سبيل المثال، أخبرنا القرآن الكريم بأن الأمم الظالمة التي عصت الله تعالى تعرضت للقهر الإلهي وبعدها اختفت في سلة مهملات التاريخ بعاقبة محزنة، يقول الله تعالى:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف، ٥٦)

ويقول أيضًا:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان، ٢٩)

وفي مقابل هذا أخطرنا القرآن الكريم بأن الأمم التي لم تبتعد عن الهداية الإلهية وثبتت على الدين المبين ورفعت راية التوحيد، وحملتها إلى جهات الدنيا الأربعة، أورثها الله الأرض،

يقول الله تعالى:

﴿...أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٥)

وهذا أيضًا يُظهر لنا أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المنهج القرآني، الذي يُشخص لنا تصرفات السابقين صحيحة كانت أم خاطئة، ويُسهّل لنا الاستفادة منها. وقد عبّر محمد عاكف على أهمية العِبر اللازم أخذها في هذا الشأن فقال:

يعرِّفون التاريخ بأنه تكرار

ولو اُستفيد منها هل كانت تتكرر؟؟!

إن التاريخ يعتمد على الأرشيف، وأثناء عمل المراجعات الجديدة للوثائق الخاصة بحضارة عظيمة كالحضارة العثمانية، سيتضح تدريجيًّا أن لا قيمة قط لتلك الاتهامات الجاهلة الظالمة التي نُسبت إلى هذه الحضارة أو نُقلت عنها.

إن الأمم الغنية بتاريخها، العظيمةَ بحضارتها أممٌ عظيمة. وحتى إن أقيمت اليوم العديد من الآثار الحضارية، فإن «جامع السليمانية» سيظل أثرًا عظيمًا ووقورًا. وهنا توجد حقيقة يجب الإشارة إليها، وهي أن أكثر الأماكن التي يرغب السياح في زيارتها، ويأتون إليها، ويظلون ينظرون إليها بإعجاب، ويرتاحون لها روحيًا، إنما هي الآثار العثمانية.

إن الباحثين المحليين والأجانب على السواء يعملون على النهل من فهم وذكاء هذه الدولة العالمية، ويبذلون جهودهم من أجل الاستفادة منها، ويسعون لأخذ نصيب مما تعلموه منها. ولهذا فإن دور الأرشيف لدينا يمتلئ بالباحثين ورجال العلم الأجانب أكثر من المحليين. ولهذا نحن مضطرون

لأن نعرّف الأجيال الجديدة، ونحن في أوائل القرن الواحد والعشرين، بحضارتنا وثقافتنا المتسمة بالرفعة والشرف، وبالبنية المعنوية التي عملت على إيجاد تلك الحضارة، والتالي علينا أن نسير على هذا الطريق العظيم الفاخر.

❁

وقد أُمرنا في القرآن الكريم بأن ننفق مما نحب حتى يكتمل إيماننا، ونتمكن من الوصول إلى الرضا الإلهي. وهناك الكثير من الحكم في هذا الشأن، يمكن إيضاح أهمها فيما يلي:

إن المال والروح أهم وأغلى ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا. ويمكن بإنفاقهما في سبيل الله شراء الجنة، والحصول على رضا الله سبحانه وتعالى. ولذا لا يمكن نشأة شخصيات خالدة كالنصب التذكاري وكذلك نشأة إنسان الوقف من هؤلاء الذين يَنذُرون أنفسهم لله إلا بإنفاق هاتين الثروتين الثمينتين. وهذه مسألة مهمة للغاية.

وذلك لأن الفرق الوحيد بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة هو الفرق في رجال الوقف أي في تلك الحفنة من البشر الذين أسهموا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله والمجتمع.

وبهذا فلا يمكن استمرار طمأنينة المجتمعات وسكينتها إلا باستمرار حياة رجال الوقف المذكورين وشأن ورفعة المجتمعات أيضاً يكون بقدر أعمار رجال الوقف المذكورين. ونحن اليوم في أمسّ الحاجة أكثر من أي وقت مضى، لأن نَنزِل إلى الأعماق الروحية للقلوب الممتلئة بالوجد والإيمان لهؤلاء الرجال، والشعور بهم وفهمهم، وأخذ نصيب من بنية قلوبهم. ما أحوجنا أيضًا في هذا اليوم، الذي تعيش فيه الإنسانية شهوة القوة وسلطة النفس، إلى رجال مخلصين قدموا أنفسهم وقلوبهم وحياتهم في سبيل الله سبحانه وتعالى من أمثال «الغازي عثمان» ونسله.

ومن الضروري لنا أن نغوص إلى أعماق أرواحنا بالأنوار المعنوية، وأن نصل اليوم من جديد إلى تلك البنية.

ويأتي على رأس رجال الوقف الأنبياءُ والصحابة والأولياء ومنْ تربوا على أيديهم. فهم قد حملوا إلى جميع أنحاء العالم بسرعة فائقة الحماسَ الإيماني الموجود في قلوبهم. وهم الذين خطوا أجمل صفحات التاريخ الذهبية.

إن المؤسس الأصلي للدولة العثمانية هو «الشيخ أدبالي» من خواص أولياء الله.

وبه لحقت الإنسانية بالطمأنينة والسكينة التي كانت تبحث عنها، وتم توجيه سلاطين العالم طوال الفترة التي استمرت فيها سلسلة «أدبالي».

ولهذ علينا أن نشاهد عن قربٍ عشقَ ووجد سلاطين الظاهر والباطن الذين تربوا على يد أدبالي وسلسته، ونعيش هذا الشعور من جديد ونُقوّم أنفسنا من خلاله.

إن الدولة العثمانية التي كتبت أعظم صفحات التاريخ الإسلامي بعد عصر الصحابة الكرام، كانت دولة تتميز بحب شعبها الشديد لرسول الله عليه الصلاة والسلام بدءًا من السلطان وحتى الراعي.

لقد وجّه السلاطين العثمانيون الذين حكموا الدولة العثمانية مظاهر الاحترام ورعاية الأدب للرسول عليه الصلاة والسلام حتى ظهرت عادات وآداب معينة عند كل فرد في الدولة. ومنها؛ أنهم كانوا يضعون أياديهم اليمنى على قلوبهم ويصلّون على النبي في كل مرة يذكر فيه اسمه وعند سماعهم توشيح المولد الشريف كانوا يقفون احترامًا وتبجيلاً عندما يرد البيت

الذي يذكر ولادته عليه الصلاة والسلام وعندما كانت ترد الرسائل من المدينة المنورة إلى إستانبول كان السلاطين لا يقرؤون الرسالة إلا بعد تجديد الوضوء وتقبيل الأوراق والنهوض وقوفًا أمامها، ولا يوجد سلطان عثماني واحد أخل بهذه القاعدة.

لقد كان العثمانيون الذين يعملون هناك أثناء ترميم المسجد النبوي يتوضؤون قبل وضع أي حجر، ولا يضعونه إلا بالبسملة، كما أنهم كانوا يربطون قطع قماش على مطارقهم تأدبًا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام وذلك حتى لا يزعجوا روحانية رسول الله أثناء طرقهم. وهذه بالطبع كلها نماذج على التأدب ورعاية الاحترام لم ير التاريخ مثلها من قبل.

وموكب الصرة الهمايونية الذي كان يتجه من إستانبول إلى المدينة المنورة، كان يحط رحاله في المنازا القريبة من المدينة قبل الدخول إليها، وكانوا يستعدون للمناخ المعنوي للمدينة ويقتربون إلى مقام رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد الاستخارة بإشارة معنوية، ثم يزورنه عليه الصلاة والسلام بأدب، ويجلبون معهم أثناء عودتهم مقدارًا من تراب المدينة إلى بلداتهم تبركًا وشفاءً.

ويا تُرى من يعلم ربما أن هذا الريش الموجود على جانب الطرة التي كانت تزين العمامة في صور السلاطين العثمانيين، إنما هي رمز مكنسة. وبهذا كان السلاطين العثمانيون يعتبرون أنفسهم عاملي النظافة في الحرمين الشريفين. وكانت رواتب عمال النظافة في الحرمين تُصرف من ثروات السلاطين الخاصة.

ويتضح لنا مما ذكرنا من حبّهم وخصائصهم السامية أن الكلمات الأخيرة لـ«عثمان الغازي» التي قال فيها:

«إن غايتنا ليس الحكم لمجرد الحكم، وإنما هي إعلاء كلمة الله» إنما كانت دليلاً ونبراسًا لكل السلاطين من بعده، وقد أبدوا حساسية ورعاية تاريخية في سبيل عدم البعد عن تلك الوصية.

❁

لقد كان العثمانيون دائمًا يقفون بجانب المظلوم، وحملوا للبلدان التي فتحوها الإنسانية وأجمل الخدمات، حتى النصارى الذين كانوا يعيشون في البلدان التي فتحها العثمانيون لم يكن بينهم عريان أو جائع. وعمل العثمانيون على حماية الأرامل، وضمنوا لهم المأكل والمشرب والمأوى. لقد اجتمعت هِمَم السلاطين العثمانيين على فكرة «نظام العالم»، فجعلوا وجود الدولة مستقرًّا على فكرة «الحكم على العالم بالأسس الإنسانية الإسلامية.»

وهـــــذا التعبير الذي عبر فيـــه «نوتراس» المسيحي البيزنطي النبيل عن عهد الفاتح قبلِ فتح إستانبول من أجمل الأمثلة على عدالة الإسلام وسماحته الحقيقية، لقد قال:

«لأن أرى العمامة التركية في إستانبول خير لي من أن أرى قبعة الكاردينال».

لَكَمْ نحن محتاجون في تلك الأيام إلى هذا السمو، وهذه المثالية وهذه الأخلاق، وهذا الحب الذي يدل على عمق الإيمان. وما أحوجنا اليوم إلى هذا العشق والأخلاق الفاضلة وإلى هذه الهمة العالية التي أخرجت سلطاناً مثل «السلطان القانوني» الذي حكم لمدة نصف قرن إلى الجهاد وهو شيخ هرم مريض؟! وأن نفكر في حال «السلطان عبد الحميد الأول» الذي لم يتحمل خبر خروج قلعة أوزي من يد الدولة العثمانية وتوفي حسبة. فما أشد هذه الحرارة الإيمانية

التي ملأت قلبه بالألم والآهات وتسببت في موته وهو يقول:

«تمزق أبنائنا الجنود والأهالي المعصومون».

يجب تحليل الشخصيات والوقائع بشكل سليم كي نتمكن من الشعور عن قرب بتلك الحقائق، وحتى يمكن الإحساس بالمعاناة، والعيش بالمشاعر التاريخية، والتعرف على الإقليم المعنوي الذي أعطاهم ذلك الوجود.

فلا بُدَّ أن نقرأ ونكتب الكتب في هذا الشأن لكي نجعل كل ذكريات أجدادنا حية في القلوب، ونجعل الحماس المعنوي وخاصة حب رسول الله عليه الصلاة والسلام متجددة دائمًا.

وإظهار البطولات والخدمات الممتلئة بالمحبة والشفقة والرحمة، التي قام بها الكثير من رجال القلب والوقف، الذين كانوا نموذجًا للمحبة، وشرفًا للتاريخ، وأسطورة للإنسانية، كما علينا إظهار أفعالهم ونصائحهم التي وجهت المجتمع، وسيرة حياتهم التي تركوها لنا كذكرى عزيزة والتي تحمل الكثير من العبر والحكم.

وقد أظهروا هؤلاء الرجال العظام للعالم كله أن الأمة كما أنها احتلت القمة في تأسيس الدولة من الناحية العسكرية، كانت أيضًا صاحبة مكانة متميزة في العلم والفن والخط والأخلاق والعرفان. وقدموا في أجمل صورةٍ تلك الخصائص المادية والمعنوية التي جعلتهم أمة سجلت الملاحم في كل ساحة من الساحات.

لقد استلهمت الدولة العثمانية، وخاصة في القرون الثلاثة الأولى لها، الصدقَ والإيمانَ من الخليفة «أبي بكر»، والشجاعة والعدالة من الخليفة «عمر»، والحياء والحب والوجد من الخليفة «عثمان»، والعلم والعرفان والإقدام من الخليفة «علي» -رضي الله عنهم - أجمعين. لقد كانوا بمثابة المصباح الذي أضاء طريق إعلاء كلمة الله التي أحاطت بالعالم أجمع.

ولم تأت أمة في التاريخ بسلسلة من السلاطين العالميين من الدهاة يلي بعضهم بعضًا لمدة ثلاثة قرون متواصلة، ولم تُؤسّس دولة في التاريخ قط كانت شعلة للإنسانية والحق والحقوق، وكانت أطول عمرًا مثل الدولة العثمانية. ويكفي أن نذكر بأن الدولة التي أسسها «عثمان الغازي» قد استمرت ٦٢٣ عامًا، كَشَاهِد على تلك الحقيقة.

لقد نمت تلك النواة الصغيرة لتلك الدولة المشرّفة بأربعمائة فارس، حتى أصبحت شجرة صنوبر ضخمة، وأصبحت فروعها تظلل القارات الثلاث، وعاشت ستمائة سنة بعزة وشرف، ثم خلفت بعدها مجموعة من الدويلات اليتيمة. وتسترت في ضريح مشرّف في المقبرة المسماة بالتاريخ. ووظيفتنا الآن هي أن نكون خدامًا لهذا الضريح كما ينبغي.

رابعة برودبيـك

مَن قلَّ أدبه حُرِم من ألطاف ربِّه

رابعة برودبيـــــــــك

يعِظنا مولانا جلال الدين الرومي عِظَةً رائعةً تُجنِّبنا ما نعيشه اليوم إذ يقول:

"لنرجو من الله أن يوفِّقنا إلى الأدب، فمن لا أدب له محروم من لطف ربِّه؛ ومن لا أدب له، لا يسيء إلى نفسه فقط بل ربما يحرق العالم برمَّته. إن كل ما يصدر عنه وكل ما يدخل قلبه من القسوة والغم ينبع من جرأته ووقاحته. لقد عمَّ النور هذا العالم بالأدب، وأصبحت الملائكة بريئة وطاهرة به أيضاً."

إننا نعيش اليوم تناقضاً كبيراً، فرغم أن عصرنا الحالي عصر الاتصالات، إلا أن علاقاتنا تقطعت وساءَ التواصل فيما بيننا، وهكذا اغترب بعضنا عن بعض، وأصبح أحدنا يسيء فهم الآخر ونتحدث لغات مختلفة، أضحينا نتجادل ونهدد ونهاجم، نتناحر ونتحارب ونتصادم ونتمايز. لقد أصبحنا أعداء، انقطعت أواصر السلام بيننا وأصبحنا نرفض محبة بعضنا، إذ لا نتساعد ولا نخدم ولا نلهم بعضنا، لقد فقدنا صفاتنا الإنسانية ونزعنا من أفئدتنا أحاسيسنا الإنسانية، وغابت مشاعر الصداقة والرفقة. وباختصار... لقد فقدنا إنسانيتنا! فقدنا صفة "الأدب" التي قال عنها جلال الدين الرومي إنها أثمن صفة يمكن أن يتمتع بها الإنسان، ولهذا نكون قد أحرقنا العالم.

يقول اليوم أعضاء الجماعات (الدينية):

"... مرشدي، جماعتي، مجلتي التي أصدرها، وقفي، دار الأيتام أو دار المسنين التي أنشأتها...".

أي إن شعور الأنا بات طاغياً حتى عندما نقول "نحن"، في حين أن الإسلام دينُ الجماعة، وأعظم فنوننا

فنُّ المحبة في الله والعيش لأجل الله، وإذا لم نتعلم ذلك فهذا يعني أننا لن نتمكن من كسب أي شيء.

إن الأمور تسير في الاتجاه المعاكس لأننا بتنا نسعى وراء المنفعة، هل سنكون قادرين على استيعاب معنى المحبة لنبينا محمد ﷺ أو لعلي أو لأبي بكر أو خديجة أو نسيبة أو حمزة أو بلال رضوان الله عليهم جميعاً بعد أن خنقتنا علاقات المنفعة؟ وجود الصداقة أمر غير ممكن إذا لم نكنَّ لبعضنا التقدير ولم نلهم بعضنا بعضاً، ولم نكن كالجسد الواحد، ولم نقدم لبعضنا نماذج تُحتذى، ولم نخدم بعضنا ولم نحب بعضنا أكثر من محبتنا لأنفسنا. اليوم تقام العديد من المحاضرات والندوات وبرامج التلفاز حول موضوع الصداقة، لكن كيف لنا أن نلتحق بركب عشق الأولياء الصالحين إذا كنا بعيدين عن بعضنا بهذه الدرجة المخيفة وكنا عاجزين عن التفاهم والتحابب والتحدث معاً عن جمال خالقنا جل جلاله وعن معرفته وثمار إدراكه؟

لقد أصبنا بفيروس الأنانية! كيف حصل هذا؟ خدَّرتنا الدنيا في حين أن دين الإسلام يدعو إلى التحلي بخلق رائع يحارب فيروس الأنانية؛ إنه الإحسان لإخوتنا حتى وإن كنا نحن في أمس الحاجة، وتفضيلهم على أنفسنا وتقديم آلامهم على آلامنا. يقول أبو بكر الصديق ﷺ والذي كان في قمة التضحية والفداء:

"الكرم الحقيقي أن يعاني المرء من أجل تخفيف معاناة الآخرين". وقد تجلَّت قمة التضحية بالنفس لدى أهل البيت والصحابة الكرام، حينما كان أحدهم يقول بصدق: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله!".

ويقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)

ولن يبلغ إيماننا الكمال إذا لم نحب نبينا عليه الصلاة والسلام أكثر من محبتنا لأنفسنا. لقد وهبنا أنفسنا كلياً للدنيا. كيف ذلك؟ لم نعد نجاهد أنفسنا والله تعالى لا يرحم من لا يسعى لبذل الجهد، نعتقد أن كل شيء مجاني، وهكذا أصبحنا لا نصوم في صيامنا، ولا نزكي عندما نعطي الزكاة، ولا نحج عندما نذهب إلى الحج، ولا نصلي في صلاتنا . ولكم هو مؤسف أننا لم نعد بشراً وأفقَدْنا العالم سكينته في حين أن الإسلام يعلِّمنا الجمال والانفتاح على العالم واحتضان الجميع ومحبتهم دون حدود.الإسلام دين محبة لا يفرق بين أحد على أساس قوميته أو عرقه أو مجتمعه أو مكانته أو بلده. ويا للأسف! لقد فشلنا في الجهاد في سبيل الله رغم أن الجهاد دَين في رقابنا لأننا خلائف النبي عليه الصلاة والسلام المرسل رحمة للعالمين، ونحن مدينون بأن نناضل ونجاهد على دربه عليه الصلاة والسلام. لقد فشلنا في أن نكون أمته، في حين أن المؤمنين بدين التوحيد يجب أن يكونوا أسرة واحدة ومجتمعاً واحداً وجسداً واحداً. جميعنا أحفاد آدم عليه السلام وأبناء هابيل، رمزَي التوحيد. إننا نحمل على عاتقنا مسؤولية العبودية، فنحن المخلوقات التي سجدت لها الملائكة، ونحن أحفاد إبراهيم عليه السلام الذي وضع دعائم دار التوحيد وبناء الكون. مع الأسف لم ندرك معنى شهادة الحسين وحمزة عليهما السلام ولِمَ سالت دماؤهما المباركة، ولم ندرك رفعة تضحيتهم بأنَفسهم بشجاعة، وبدلاً عن إدراك ذلك أصبحنا بغفلة حيوانية ننفذ هجمات انتحارية، ونفجر أنفسنا وسط الأسواق المزدحمة متسببين بمقتل المدنيين الأبرياء ومعتقدين أننا سندخل الجنة بذلك دون حساب، ما هي المسؤولية التي نتوانى عن أدائها ليكون ذلك سبباً في أن تسقط هذه القنابل على العالم الإسلامي؟

العالم الإسلامي في أزمة... لم نعد نقتدي بنبينا عليه الصلاة والسلام الذي طلب لأمته القرب إلى الله والهداية والرحمة والمغفرة! إننا نعاني المشاكل في حين أننا أتباع دين هو رحمة للعالمين. لقد أرسل الله تعالى حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام لغاية واحدة، وهي أن يكون رحمة للعالمين! غير أن المسلمين تركوا الاقتداء بأخلاق محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام

وكفوا عن السعي إلى السير على دربه. وبات زماننا زمان الابتعاد عن الجوهر وزمان الزيف، زمان الإساءة والظلم والاستغلال والاعتداء والظلم والإرهاب والفساد. وهكذا فقدنا كنز القرب إلى رب العالمين ونبيه المرسل رحمة للعالمين. وهذا الفقد يعني بقاء معادن هذه المحبة المتأصلة في حياتنا طي النسيان إلى الأبد وعدم بلوغنا الإنسانية.

إننا نلحظ أن أبناء هذا العصر مقارنة بالأجيال السابقة قد سقطوا في مستنقع أكبر من الجهل، وابتعدوا أكثر عن الفيض المعنوي لبركة الله تعالى وحبيبه الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام وباتوا محرومين منه. نعيش اليوم حالة من الابتعاد والقطيعة بيننا إلى درجة مريعة وكأننا نعيش هذه الآية القرآنية:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٦)

علينا أن نسأل أنفسنا: ألا نعيش القيامة الآن؟ فالإنسانية تضمحل أكثر فأكثر، وقد انتشر الموت والدمار في كل مكان، وتفشت أكبر المصائب التي يمكن أن تواجهها الإنسانية، وأضحينا نعيش إفلاساً أخلاقياً وسياسياً واقتصادياً. لقد أصبحنا نرى قيماً منعكسة في جميع الأبعاد. الصراعات المذهبية تمزق جميع أواصر الأخوة وتقطع أوصال الروابط المعنوية بين الأشقاء، وبات العالم الإسلامي يعاني الانقسام والازدواجية وأصيب بفيروس التفرقة، الناس يبيدون بعضهم بعضاً.

ولن ينبع النور الإلهي من القلب إلى القلب إلا عندما يكون بعضنا مرآة بعض.. الدين الإسلامي يعني حباً بلا أي مقابل يتدفق بأرفع حالته بين قلبين. لقد مُنحت أمة محمد عليه الصلاة والسلام أكبر سعادة في أن تعيش ما جاء في الحديث الشريف بأسمى حالاته.

يقول عبد القادر الجيلاني:

"إن القصد من المؤمن الأول والمرآة الوارد ذكرهما في الحديث الشريف قلب المؤمن الصافي، والمؤمن الثاني الذي يرى انعكاسه في هذا القلب هو ذات الله سبحانه وتعالى".

فالنور الإلهي لذات الله قد اتحد مع نور النفس الطاهرة، واتحاد النورين يعني نور على نور، ومن خلال المرآة الإلهية في القلب يصبح الإنسان قادراً على معرفة نفسه.

ومن خلال مرآة وجوده يشاهد ربه ونفسه وسائر المخلوقات لكن بشرط واحد:

أن تكون مرآة القلب نظيفة فحينها فقط يبدأ تجلي الصفات الإلهية (وبريقها) في مرآة قلبه النظيفة، وحينها سيبدأ لمعان مرآة الإخلاص يعكس سرمدية الأسرار الإلهية. قال الله تعالى في سورة النجم:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.

ويقول جلال الدين الرومي:

"من تجاوز عن الصورة ونقّى سريرته، أصبح مرآة لصور الغيب لأن المؤمن مرآة المؤمن".

من أين يأتي هذا الفيض الإلهي؟ من الوحدة والاتحاد والمحبة. من أين يسعنا طلب المتعة والسرور والسعادة الحقة؟ من بيت الله فهناك نعيش حقيقة "المؤمن أخو المؤمن" ونعكس لبعضنا بعضاً بريق مرآة الإخلاص وسرمدية الأسرار الإلهية.

وثمة نقصٌ آخر هام يعاني منه العالم الإسلامي، إنه الصداقة الإلهية والعجز عن عكس تجليات الله وكلامه،

إن قمة تجربة السعادة والنجاح المعنوي المطلق يكمنان في مصادقة صفوة الصحابة الذين بايعوا نبينا عليه الصلاة والسلام.

وصداقة رفيعة من هذا النوع تعني الصيرورة معاً في حال توحيد مع الخالق في عالم الأرواح والترديد دوماً دونما وسيط "أجل أنت ربنا!".

فحيث تكون الصداقة الإلهية يكون تقاسم الأسرار الإلهية المنعكسة من قلب إلى آخر. الصداقة الإلهية تعني مشاهدة جمال النور المنعكس من قلوب باتت شفافة ونقية.

إن قمة تجربة السعادة والنجاح المعنوي المطلق يكمنان في مصادقة صفوة الصحابة الذين بايعوا نبينا عليه الصلاة والسلام. وصداقة رفيعة من هذا النوع تعني الصيرورة معاً في حال توحيد مع الخالق في عالم الأرواح والترديد دوماً دونما وسيط "أجل أنت ربنا!". صداقة من هذا النوع تعني العيش معاً والموت معاً، وهذا ما يتطلب تشاطر آلام القلوب. الصديق الحقيقي من لا يتوانى عن المبيت في سرير الموت عوضاً عن صديقه، كما فعل علي ﷺ عندما بات في فراش رسول الله رغم معرفته بأن المشركين قادمون لقتله عليه الصلاة والسلام.

الدين يعني التمكن من إقامة علاقة تجريبية حول الحياة، علاقة مفعمة بالمعنى النابع من القلب وإلى القلب، فتتنفس عبق الصداقة الحقة. الدين يعني المشاركة في لذة التعافي وفرح الاستفاضة من النور، وسعادة الأسرار الإلهية حين تتجلى في القلوب الصافية، وسرور خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وتقاسم متعة الوليمة الإلهية والأخوة بالرضاعة، وهي تعني أيضاً فكراً عميقاً ويقيناً يعتمد على المشاهدة وسعادة التوحيد.

من يستطيع تقاسم ذلك يندمج في نهر الأولياء ويعيش سر: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ويختبر بسعادة تجربة "المؤمن مرآة المؤمن" و "ما وسعني لا سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن."

عند إمعاني النظر في الوضع الراهن لمجتمعاتنا المعاصرة أعتقد أنه يتعين على الناس التخلي عن حججهم وأفكارهم المنطقية ومناهجهم المعتمدة على العقل وحده، وتجاوز مخاوفهم السياسية والاجتماعية والظاهرية والقانونية والطرائق المحدودة بالمنطق، والاتجاه نحو تشارك التحذيرات الأبدية الإلهية التي حملها مرشدنا الأسمى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام المتربع على عرش القلوب. لقد آن الأوان لتنحية النقاشات العقيمة اللامتناهية جانباً. إن تناول القضايا السياسية والدينية والاجتماعية بشكل رسمي وظاهري فقط يعني جعلها أكثر سطحية. ومحاولة التفكير والقيام بتحليلات منطقية حول الحقيقة أمورٌ لا تمكن إلا في غياب الإدراك والعشق الإلهيين والبعد الداخلي، ونتيجة لهذا التأويل الخاطئ للحقيقة ازدادت سطحية حياة الإنسان المرتكزة أساساً على الظاهر. وهذا الحال يضع نصب أعيننا المشكلة الأزلية التي تعاني منها الإنسانية.

نعيش اليوم حالة من الابتعاد والقطيعة بيننا إلى درجة مريعة وكأننا نعيش هذه الآية القرآنية:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٦)

فعلينا أن نسأل أنفسنا: ألا نعيش القيامة الآن؟ فالإنسانية تضمحل أكثر فأكثر، والموت والدمار منتشر في كل مكان، وقد تفشت أكبر المصائب التي يمكن أن تواجهها الإنسانية، وبتنا نعيش إفلاساً أخلاقياً وسياسياً واقتصادياً.

قال رسول الله ﷺ:

"ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها" (الترمذي:٢٣٢٥)

طريق رفيع طويل

مراد آك كون

الحياة هي حسب مقولة العاشق ويسل Veysel "طريق رفيع وطويل".

طريق "رفيع وطويل، وذو اتجاه واحد". طريق يسير فيه الجميع نحو الأمام، طريق لا عودة فيه.

طريق طويل ورفيع ولكن خط حياة كل إنسان ينتهي ويختفي في أماكن ونقاط مختلفة منه. فخطوط البعض طويلة للغاية، وخطوط الآخر قصيرة جداً.

لو أننا كنا نعي وندرك بأن هذه هي حال الحياة، فمن المؤكد أن أموراً كثيرة كانت قد تغيرت. فلطالما أدركنا أن طريقنا لن يتغير وسوف ينتهي في نهاية المطاف لكنا في أغلب الظن سنسير ببطء قدر الإمكان.

ولطالما علمنا بأنه لنا الحق بالسير على هذه الطريق لمرة واحدة لكنا في الغالب قلنا ما الداعي للعجلة، وحاولنا قدر المستطاع السير بتأنٍ والتأمل بالمناظر والمشاهد الجميلة المترامية على طرفي هذا الطريق.

ولكن مع الأسف؛ لا يود أحد منا التصديق بالنهاية المحتومة لطريقنا الذي نسير فيه. وفوق ذلك فإننا نسارع الخطى بكل ما أوتينا من طاقة متجهين مباشرة نحو خط النهاية. وكأننا نريد البرهنة على أن الطريق لن ينتهي أبداً.

كلنا في حالة صخب وسعي واحدة. مستعجلون ومتلهفون للوصول إلى أماكن ما، ومن دون أن نعلم بأن كل مكان نبلغ إليه سوف يوصلنا إلى النهاية.

نحطم كل شيءٍ ونريقه، نشرد عن الطريق، نطمع بطريق الآخرين ونمد بأعيننا إلى ما بأيديهم، ونسلب من إخوتنا حقهم بالحياة.

نعشق تجاوز بعضنا البعض، ندخل في سباق محموم ولكن دون أن يخطر ببالنا قول الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام:

"تسابقوا في الخير".

لقد جعل "العالم الحديث وأنظمته" كل واحد منا وكأنه "حصان سباق". ل

قد زرع فينا هذا العالم المعاصر وأنظمته بذور "الطمع والجشع".

فمدت غراس الحسد بأغصانها في قلوبنا، وبسبب التنافس المحموم والحرص الشديد على تجاوز المحيطين بنا والتفوق عليهم نحرق أنفسنا، والذين هم من حولنا.

السباق. فأصبحت عقولنا وضمائرنا أضاحي وقرابين على مذبح سباق أنهكنا أنفسنا فيه. صارت الفضائل والمحاسن التي صنعتنا في حفر عميقة...

فنحن بأقصى سرعتنا في هذا السباق، فلم يعد هناك شيءٌ يتقد في داخلنا الذي حرقناه بعشق التقدم في هذا السباق ونيل المركز الأول. ولم تعد تؤلمنا الوخزات اللاذعة لضميرنا الذي غاب عنا. ولم يعد عقلنا الذي اختفى في حفر ظلمات يصرخ بنا للمظالم التي نرتكبها.

أحياناً تتعلق بقايا عقولنا الباقية بربنا، ولكن سرعان ما يسوقوننا إلى سباق جديد. يقدمون سباقات جديدة لعقولنا من دون أن يرد ربنا إلى أذهاننا.

قال رسول الله ﷺ: "إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء"(الترمذي:٢٣٢٥)

وبسبب عشقنا للتفوق في هذا السباق والوصول إلى المركز الأول طرحنا أرضاً كل ما يثقل كاهلنا.

وقبل كل شيءٍ رمينا عقلنا الذي يصرخ بنا قائلاً: توقف للحظة أيها الإنسان وفكر لمَ كل هذا الإسراع بالسير نحو النهاية؟

إن الحياة التي هدمتها وقضيت عليها هي حياة إنسان، أتظن أنك لن تُسأل عنها؟

فلم نعد نفكر، وأرحنا أنفسنا من وطأته.

ثم رمينا جانباً بضميرنا الذي يملأ مكان عقلنا الذي نزعناه من رؤوسنا، والذي لا يفارقنا في ساعات الليل القليلة التي جعلناها بمثابة استراحة قصيرة من

بالكاد بقي بين أيدينا إيماننا الطاهر والجميل مثل يوسف. فهل سوف نرمي بإيماننا الذي هو يوسفنا في الجب في سبيل أن نكون محبوبين من قبل هذه الأنظمة التي ظنناها يعقوباً، أم أننا سنقول مثل ما قال إخوة يوسف:

﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف: ١٧)

في سبيل أن نكون الأفضل...

وفي سبيل أن نكون محبوبين...

وفي سبيل الحصول على المركز الأول...

د: سليمان درِن

الأهداف والوسائل

يحظى الساعون إلى خدمة الإسلام وتجسيد نموذج المسلم الصالح بمحبة المجتمع واحترامه على الدوام ، فترى أحباب القيم السامية حولهم بعد مدة قصيرة. غير أن جميع الحركات والجماعات الدينية- مهما عظمت- ليست معصومة عن الخطأ؛ لذلك عليها أن تعيد النظر في مناهجها.

ويرى الإمام الغزالي أن الناس يتصرفون أحياناً بحسن نية، لكن هذه النية الحسنة قد تتحول فيما بعد إلى نية سيئة وبالعكس. فإن الناس قد يبدؤون بعمل شيء ما بنية سيئة لتنقلب هذه النية فيما بعد إلى نية حسنة، وليس هناك ما يضمن استمرارية النية الحسنة. وقد أبدى الصوفيون على مدى التاريخ اهتماماً بالغاً بهذا الأمر. وكان الأشخاص الذين ابتعدوا عن القرآن والسنة عرضة لانتقاد المقرَّبين منهم أولاً قبل أي أحد آخر. وللإمام الرباني السرهندي مكانة خاصة في هذا الشأن، فهو لم يتوانى لحظة واحدة عن إبراز أغلاط الصوفيين وأخطائهم في المناهج التي اتبعوها.

أحد تلك الأخطاء تحويلهم مفهوم "مشاهدة جمال الخالق في جمال المخلوقات." إلى منهج. وقد سمى بعض الصوفيين ذلك بـ "الانتقال من حب ليلى إلى حب المولى." قاصدين بذلك انتقال الإنسان من المجاز إلى الحقيقة، انطلاقاً من عبارة "المجاز جسر الحقيقة". ويتطرق الإمام الرباني في كتابه "مكتوبات" [الجزء٣ الرسالة ٦٦] إلى هذه المسألة بقوله:

"فليكن معلوماً أن المجاز ظلُّ الحقيقة، وفي الظل هناك دائماً طريق عظيم يذهب إلى الأصل. يقول بعض الحكماء: (من عرف نفسه، فقد عرف ربه." وهم قالوا ذلك بهذا المعنى، لأن معرفة الظل تقود الإنسان إلى معرفة الحقيقة، فالظل قائم على صورة الأصل، لذا فإنه سبب في الكشف عن الأصل".

يرى الإمام أن الخطر يكمن في أن الصوفي قد يتوقف أحياناً عند المجاز؛ أي إنه يتخلى عن الهدف ويتعلق بالوسيلة، فجمال المجاز قد يأخذ بألباب السالك، في حين أن المجاز يجب أن يكون مجرد سلم يصل به إلى الحق، لكن المجاز قد يقطع أحياناً الطريق المؤدي إليه.

يقول الإمام الرباني مستلهماً من أحد الأحاديث الشريفة:

"إن الإنسان تحق له النظرة الأولى فقط، أما النظرة الثانية فقد تكون سبباً في ارتكابه أخطاء منهجية"

ويضيف:

"لكن يجب عدم إغفال أن كون المجاز جسراً إلى الحقيقة يتطلب عدم الافتتان به وعدم النظر إليه مرة ثانية. إن الجسر المؤدي إلى الحقيقة هو النظرة الأولى التي قال عنها نبينا عليه الصلاة والسلام: (إن لك النظرة الأولى) وبقوله: (لك) أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن هذه السعادة الكبرى سوف تتحقق، غير أن الخطر الأكبر هنا هو ـ والعياذ بالله ـ أن يُبتلى سالك درب الحقيقة بالمجاز، وإذا ما وصل الأمر إلى النظرة الثانية حينها لن يكون المجاز جسراً يؤدي إلى الحقيقة، بل شيطاناً يعيق درب الوصول إليها. بل وحتى قد يكون هذا المجاز صنماً يدعو إلى عبادته، وفخاً يُضل عن جادة الحق. لهذا قال لنا النبي عليه الصلاة والسلام مبيِّناً أضرار النظرة الثانية: (وليست لك الآخرة). وهل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر ضرراً مما يبعد عن الحق سبحانه وتعالى ويشغل المرء بالباطل؟".

ويقول الإمام في تفسيره للآية الكريمة

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠)

التي نزلت في غير المحارم:

"إن جميع النظرات والعلاقات التي تبعد الإنسان عن الله قد حُرمت بهذه الآية".

والمثير في الأمر أن بعض الصوفيين الجهلة قد فهموا هذه الآية بمعنى مغاير تماماً لمعناها الأصلي، وانجرفوا وراء ولعهم في مشاهدة جمال الحق في وجوه البشر. في حين أن ذلك وكما ورد في الحديث الشريف محرَّم، وهو زنا العين.

لم يفهم بعض الصوفيين البسطاء وضعاف العقول معنى هذه العبارة، لذا وقعوا في الخطأ واختلط عليهم الأمر، فقد تعلقوا بالصور الجميلة وخدعوا بجمالها، وهم يرغبون في أن تكون وسيلة إلى الوصال وسلماً إلى هذا المقصد. هؤلاء الجهلة يعتقدون أن جمال الصور هو جمال الحق سبحانه، ويظنون أن الاهتمام بها يعني الاهتمام بالحق سبحانه. كما يظنون أن مشاهدتهم تعني مشاهدة الحق سبحانه.

ويرى الإمام أن هذا النوع من المفاهيم خاطئ تماماً وخارج عن نهج أهل السنة، وأن الاعتقاد بكون جمال الله تعالى وجمال المخلوقات أمر واحد إنما هو ذنب عظيم، فجماله تعالى يفوق كل التصورات. ويحاول الإمام شرح هذا الأمر من خلال ما حصل مع سيدنا موسى عليه السلام، فيقول:

لقد احترق جبل الطور وتفتت إلى أجزاء لتجلي الحق سبحانه عليه مرة واحدة وسقط موسى عليه السلام مغشياً عليه مع أنه صاحب مقام رفيع، وهذا ثابت في النص القرآني. ويزعم الصوفيون الذين تحدثنا عنهم بعقولهم العقيمة أن الحق سبحانه وتعالى يمكن له أن يتجلى دوماً في المخلوقات دون حجاب. إن الله تعالى يسمو بكثير على ما يقوله هؤلاء الظلمة، ماذا تظن هذه الطائفة المعيبة بالحق سبحانه؟ وكيف تتصور حسنه وجماله؟ ألم يسمعوا أنه إذا ما سقطت ـ وهذا محال ـ شعرة واحدة من شعرات حوريات الجنة اللاتي

خلقهن الحق سبحانه إلى الدنيا، فإن الدنيا لن تُظلم بعد ذلك قط، ولن يكون هناك ليل أبداً لنور تلك الشعرة وبريقها؟!

لقد سلط الإمام الرباني في رسالته هذه الضوءَ على أحد أخطاء الصوفيين، وتناوله بالتفصيل، وانتقد في كتابه "المكتوبات" كثيراً من الأخطاء الأخرى كهذا الخطأ وبيَّن الصواب. ولم يتوانى الإمام حتى عن انتقاد الصوفيين الذين قضوا سنين طويلة في تحصيل العلوم الصوفية.

فكل زمرة يمكن أن يخرج منها أفراد يفهمون الآيات والحديث فهماً خاطئاً ويحاولون بسبب ذلك بلوغ أهدافهم بأساليب باطلة، ولا تجوز طاعة العبد للعبد في مناخ تُنتهك فيه أحكام القرآن والسنة الواضحة.

لهذا على كل فئة رؤية أخطائها في ضوء القرآن والسنة والإجماع، ويجب على الناس محاسبة أنفسهم والتوبة عن كل الأفعال والمناهج المتبعة باسم الإسلام والبعيدة كل البعد عن روح الدين لا سيما في هذه الأيام الصعبة التي نعيشها. علينا ألا ننسى أن أحداً من الصوفيين أو العلماء أو الصالحين ليس معصوماً عن الخطأ باستثناء النبي ﷺ.

وقد عرفنا في تاريخ الإسلام الكثير من الحركات التي انطلقت بنيَّةٍ حسنة لكنها حادت بعد ذلك عن هدفها، علينا ألا ننسى أن الأمر الأهم بالنسبة إلى الشيطان ليس تضليل الغافلين والفاسقين بل تضليل العلماء والعارفين، والنهج الذي يلجأ إليه الشيطان غالباً في هذا الأمر هو خلط الغايات والوسائل وقيادة الجماعات المتطرفة إلى التحرك بتعصب.

اللهم أبعِدنا عن جميع أشكال التطرف. ولننهي حديثنا بدعاء الإمام الغزالي:

السلام على من اتبع الهدى وعلى من استمسك بدرب محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام.

إقرأ وتمعن

تذكر الآية ١٨ من سورة الحاقة عن اليوم الذي سيُعرض فيه الناس على الله تعالى من أجل الحساب،وتشير إلى أنه في ذلك اليوم: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾. وتخبر السورة بعد ذلك أن من سيأخذ كتابه بيمينه سيكون في النعيم وتقول:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

(الحاقة: ١٩-٢٣)

واللافت للنظر في هذه الآيات أنها تشير إلى أن من سيستلم كتابه بيمينه في ذلك اليوم، سيكون في عيشة راضية وسيكون قادراً على القول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ...﴾ لأنه يؤمن إيماناً يقينياً بأن هذا المشهد سيتحقق وهو يُسارع خلف الأعمال التي ستأخذه إلى تلك اللحظة، ويحترس من فعل ما يجعله يستحق العكس.

إذا كانت الحياة سباقاً لا نعرف أين أو كيف سينتهي، فإن الهدف خوضه بنجاح والرحيل عن هذا العالم بإيمان كامل حتى النفس الأخير. والخطوة التي تتلو ذلك إنما هي الدخول في زمرة المبشرين الذين تتحدث عنهم الآية الكريمة لنتمكن من قول: "كنت أعرف هذا" ونأخذ بيميننا دفتر الأعمال الذي كُتبت فيه جميع أعمالنا دون استثناء، صغيرة كانت أم كبيرة. وأن يكون كتاب أعمالنا الذي يُؤخذ باليمين مفتوحاً أمام قارئه بقلب مطمئن.

أكثر ما نحتاج إليه:

العفو المحمدي والأخوة اليوسفيَّة

أحمد باشر

لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشرَ وجعل من صفاتهم الضعف والجهل والحاجة إلى نضج الأخلاق، لهذا فإننا سريعو التأثر بكل ما يحيط بنا، فتتبدل مواقفنا من الأحداث التي تجري من حولنا، فتارة نظهر رد فعل مبالغ تجاه بعضها، وتارة نظهر فرحاً مفرطاً تجاه أحداث أخرى. ويُعد الاعتدال، أي الوسطية في كل الأحوال والتأني والاتزان والصبر من أفضل الأحوال. ولكن هذا الأمر لا يستطيع التحلي به إلا أصحاب الأخلاق الحميدة، ومع الأسف لم يبقَ من هؤلاء الناس إلا القليل.

وإذا أردنا تقديم أمثلة من حياتنا فهي كثيرة، ومن ذلك قول بعض الناس: "إن فلاناً لم يحضر حفل عرس ابن أخي، وفلان لم يزرني في العيد وقد كنت ذهبت إليه من قبل عدة مرات، لقد اغتابني صديقي فلان... إلخ".

نعم، ربما ينبغي ألا تحدث مثل هذه الأمور، وربما نكون محقين تماماً في هذه المسائل؛ إلا أن بعض الناس يقاطعون بعضهم بسبب هذه المسائل التي لا يمكن إحصاؤها لأيام، بل حتى لأعوام، فلا مناسبات الأعراس تكفي لإنهاء هذه القطيعة، ولا الأعياد. فعندما ينشغل التفكير بمثل هذه الأمور والوساوس فإنها تكبر وتتعاظم في نظرنا، وتظل برودة العلاقات تدمي قلوبنا جرحاً اجتماعياً خطيراً.

إننا نعيش في بلاد إسلامية، وأغلبنا قد قرأ شيئاً قليلاً أو كثيراً من سيرة النبي ﷺ. فقد قضى النبي ﷺ السنوات الإحدى عشرة الأولى من النبوة يتألم ويعاني، وتعرض فيها لكثير من الظلم والأذى والاضطهاد. والآن فلنتأمل الأحداث التي تعرض لها، ونسأل أنفسنا: هل الإخوة والأقرباء الذين نقاطعهم قد ألقوا فوق رؤوسنا أحشاء ناقة ونحن قائمون نعبد الله؟ وهل حاصرونا وأحبابنا حصاراً اقتصادياً لنتعرض للجوع والعطش؟ وهل أجبروا أقرباءنا وأصحابنا على الهجرة إلى بلد مسيحي لعدم تحملهم لصنوف الاضطهاد والتعذيب التي تعرضوا لها، أم هل قتلوا بعض أحبائنا تحت التعذيب الشديد؟ هل وضعوا الخطط من أجل قتلنا؟ أم هل أجبروا كثيراً من أصحابنا وأحبابنا الذين نجوا من القتل بعون الله، على ترك أموالهم وأقربائهم والهجرة من وطنهم إلى بلاد أخرى؟

وهل وعدوا بالجوائز من يأتي برؤوسنا إليهم؟ أم هل قاموا بملاحقتنا إلى البلاد التي اضطررنا للهجرة إليها، وشنوا علينا كثيراً من الحروب غير المتكافئة في العدد والعتاد؟

لقد تعرض حبيبنا ونبينا عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم لكل هذه الأحداث. فما كان ذنبه عليه الصلاة والسلام حتى يتعرض لكل ما تعرض له؟ وما كان هدفه غير تبليغ الدين الحق؟ كان من حق النبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة التي تُعد قبلة المسلمين ومركز أداء فريضة الحج، والموطن الذي ولد وترعرع فيه، أن يقتص من أهل مكة على أساس الأحكام الشرعية فيقتل بعضاً منهم، ويُنزل أشد ألوان العذاب بالآخرين، لو أراد الانتقام من أهلها الذين عذَّبوا المسلمين وقتلوا أقرباءهم، أليس كذلك؟ إلا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك، بل عفا عن الظالمين. وبهذا العفو بيَّنَ للناس عظمة شأنه، وحسن أخلاقه. وبالعفو أظهر للناس أن الدين الإسلامي دين رحمة. وبالعفو منع ظهور مشاعر الحقد والانتقام، والضغينة التي كانت سوف تستمر لأجيال متلاحقة.

يتلو معظمنا القرآن الكريم، ويقرؤون الشروح والتفاسير. فهل تلوتم يوماً سورة يوسف التي تقدم لنا قصة من أجمل القصص القرآنية، أو حتى تفسيرها؟

إن لم تكونوا قد قرأتم هذه السورة والقصة فإني أوصيكم بقراءتها، وتعالوا بعد ذلك لنتفكر معاً:

"هل حاول إخواننا الحقيقيون قتلنا عمداً وإخفاء أثرنا من الدنيا نهائياً برمينا في البئر؟ وهل بعد أن أنقذنا الله من الموت وأخرجنا من البئر وقعنا أسرى في يد بعض التجار وتم بيعنا عبيداً؟ وهل بعد ذلك عندما دخلنا إلى قصر أحد الملوك عبيداً تعرضنا لامتحان عصيب فوقعنا في مكيدة امرأة الحاكم لحسن هيئتنا وجمال وجهنا، ثم تعرضنا نتيجة لذلك لغضب الحاكم ظلماً وعدواناً؟ وهل بقينا في غياهب السجن اثنتي عشرة سنة من غير ذنب؟ وهل أُعمي بصر أبينا من كثرة البكاء حزناً وكمداً علينا؟"

دعونا نجيب على هذه الأسئلة بهدوء، وقولوا أيها الإخوة أي من إخواننا المسلمين الذين نقاطعهم ونهجرهم قد فعل بنا شيئاً من الأمور التي ذكرت في الأعلى؟

فكل هذه الأمور قد جرت مع سيدنا يوسف عليه السلام. ثم بُرئ بكرم الله تعالى من التهمة الباطلة التي افتريت عليه، وأصبح وزيراً لخزائن مصر- أو ما يعرف حالياً بوزير المالية- وفي السنوات التي تعرضت فيها البلاد للجدب والجفاف، توافد الناس من سائر الأنحاء طلباً للطعام والمؤن، وكان من بين هؤلاء إخوة يوسف الذين جاؤوا من بعيد يطلبون المؤونة. فعرفهم يوسف عليه السلام، وأما هم فلم يتمكنوا من التعرف عليه. فأعطاهم يوسف عليه السلام مطلبهم، ولما أقدم على أمر كي يضمن عودتهم مرة أخرى ومعهم أبوه، أدرك الإخوة بأن الذي يقف أمامهم هو أخوهم يوسف عليه السلام. فماذا قال لهم يوسف عليه السلام في تلك اللحظة؟ لقد قال لهم كما ينقل لنا البيان الإلهي:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢)

يمكن أن يقال: "نحن لسنا أنبياء حتى نصبح مثلهم". أجل، نعم لسنا بأنبياء، ولكن غداً في يوم القيامة نرجو شفاعة رسول الله ﷺ، فكيف سنطلب

منه الشفاعة إذا لم نعف عن إخوتنا الذين هجرناهم لأسباب تافهة لا قيمة لها؟ فتعال وتصالح مع أخيك الذي هجرته. هل سندع التصالح والتسامح إلى الآخرة، وإذا لم نتخذ الأنبياء قدوة لنا فمن سنتخذ إذاً؟ وإذا لم نتخذ القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فأي كتاب سنتخذ إذاً؟ فنحن لا نستطيع أن نقول لما ورد في القرآن الكريم مثل قول الذين لا يؤمنون به:

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٥)

إننا نرى ونعلم أن جبهة الكفر بمسيحيها، ويهودها، وبوذيها، وملحدها قد اصطفوا في خندق واحد وجعلوا الإسلام عدواً مشتركاً لهم، وأخذوا يثيرون شتى أنواع الفتن بكل ما أوتوا من قوة وحيل ومكائد، ويلحقون بالمسلمين مختلف أشكال الأذى والضرر ومن كافة النواحي وبشتى الوسائل تحت اسم الحرب الشاملة. أليس أشد ما نحتاج إليه في ظل هذه الظروف إشاعة السلام والأخوة بين المسلمين جميعاً على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والدول، والتوحد ضمن قوة واحدة؟. نسأل الله تعالى أن يزيد من وعي المسلمين، وأن يرزقنا بشيء من عفو نبينا عليه الصلاة والسلام، ومن أُخوة يوسف عليه السلام.

هذا العفو الكبير هل شهدت الدنيا مثيلا له؟

كيف فتح محمد عليه الصلاة والسلام مكة؟ وماذا فعل بأهلها الذين كذبوه وأهانوه وأخرجوه؟

قال ابن اسحاق: فزعم بعض أهل العلم ان سعدا حين وجه داخلا، قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة!» فسمعها رجل من المهاجرين، قال ابن هشام: هو عمر ﷺ، فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن ان يكون له في قريش صولة، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها. وكان النبي ﷺ قد عهد الى امرائه من المسلمين حين أمرهم ان يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم. ودخل مكة عليه الصلاة والسلام متواضعا أشد ما يكون التواضع، فلما انتهى الى ذي طوى وقف على راحلته، وان النبي ﷺ ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى ان لحيته ـ لتكاد تمس واسطة الرحل.

اذهبوا فأنتم الطلقاء

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها.

ثم قام على باب الكعبة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج». ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣).

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟»

قالوا: «خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم» قال:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

يقول الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)

القدس مدينة الروح

ALQUDS

عائشة قلتش

مدينة القدس كلمة تمتلك بحروفها قداسة هذا المكان الذي يحتوي على المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى نبينا عليه الصلاة والسلام، فهو أول محطة مباركة في رحلة الإسراء والمعراج، وأول درجة من درجات الارتقاء إلى السماء.

إنها المدينة التي لم تتمكن الأديان من تشاطرها، إنها الحرم الشريف الثالث بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، إنها المدينة التي يُصعد منها إلى السماء. إنها القدس؛ تاريخ القرآن، وأرض الأنبياء من إبراهيم إلى يعقوب وموسى وعيسى، ومحط الأنبياء والأولياء وعشاق الحق والمتصوفين. في كل زاوية من زواياها تقريباً تطالعك ذكرى نبي من الأنبياء أو حاكم من الحكام، وكأنها كتاب حي يروي القصص والعبر. لقد تركت مدينة القدس أثرًا عميقًا في قلوبنا.

سألت أم المؤمنين ميمونة النبي عليه الصلاة والسلام عن القدس قائلة:

"يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس؟"،

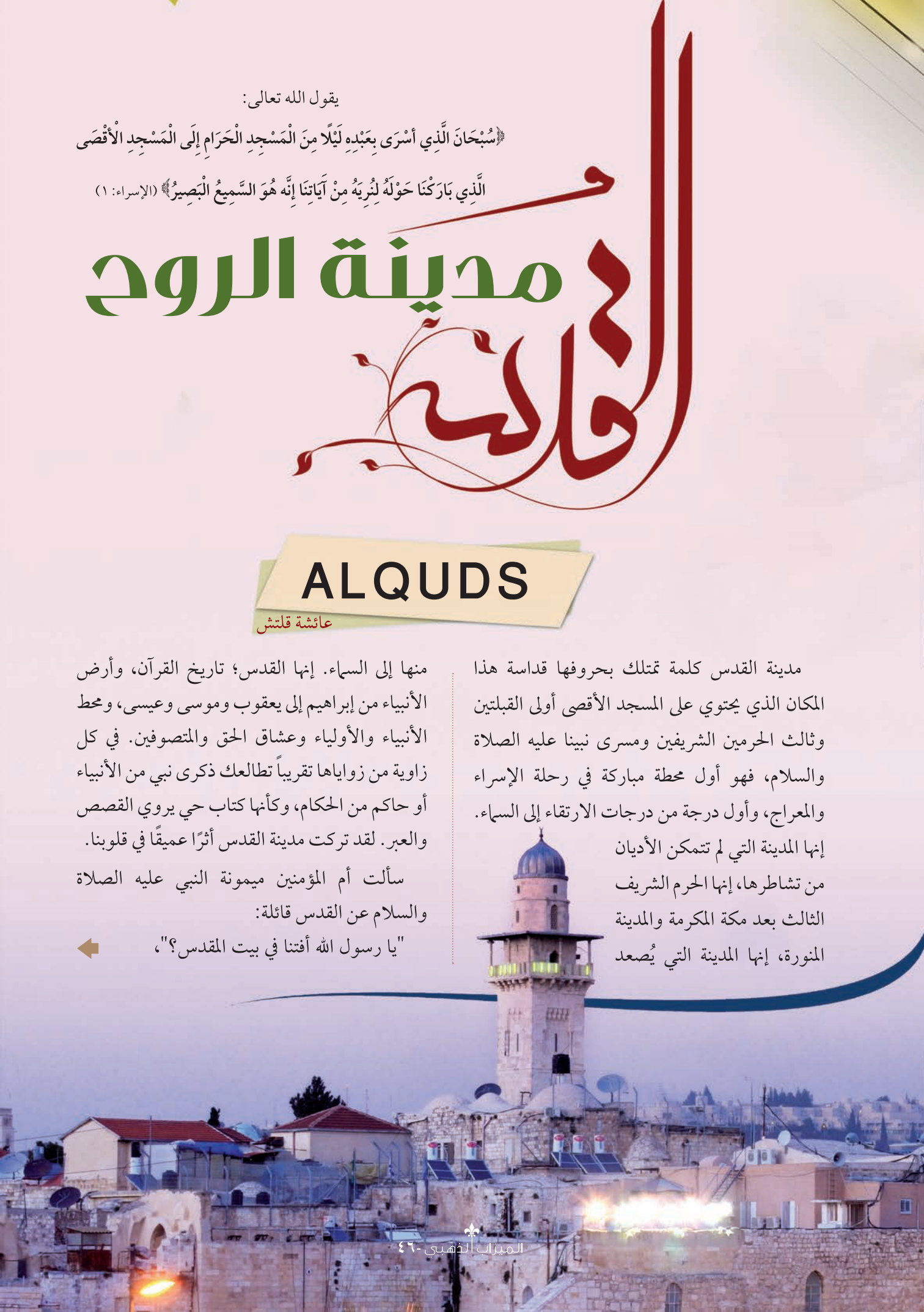

فقال: "أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره."،

قالت: "أرأيت إن لم أستطع أن أتحمل إليه؟"،

قال: "فتهدي له زيتاً يسرج فيه فمن فعل فهو كمن أتاه."(سنن ابن ماجة: ١٤٠٧)

وكما نعلم فإن النبي عليه الصلاة والسلام عندما هاجر إلى المدينة المنورة كان يصلي نحو بيت المقدس. لقد دل عليه الصلاة والسلام مسلمي اليوم على أن الهدف هناك. وهكذا فإننا نأخذ هذه الإشارات النبوية بعين الاعتبار ونطيع هذه الوصايا، ونطلب الرحلة إلى القدس ـ رغم المخاطر الأمنية في المنطقة ـ لنكون شهوداً على التاريخ ونسبر أغوار هذه البلدة.

إن لقاء هذا البلد الذي تتحرق أفئدتنا شوقاً لرؤياه يثير حماسنا، فالصلاة في هذا المكان المبارك الذي صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام وجميع الأنبياء، ورؤية المكان الذي ارتقى منه عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء والمعراج، والنظر إلى الصخرة المعلقة التي سعت وراء النبي عليه الصلاة والسلام بعشق وشغف والتي قيل عنها إن الصخرة التي سلم عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج، وزيارة مسجد البراق الذي ربط فيه نبينا عليه الصلاة والسلام "البراق" عندما عرج من مكة بمعجزة الإسراء، كل ذلك يجعل رحلتنا ذات قيمة كبيرة ويقربنا من المولى سبحانه وتعالى، إن المسجد الأقصى يحيط بنا من كل جانب، ويجعلنا بحق ننسى وحدتنا.

نتوجه في طريقنا إلى مدينة الخليل... تلك المدينة المباركة، إنها مدينة إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء خليل الله، وزوجته أمنا سارة. أثناء دعوتهم لنا إلى الدخول تؤلف معرفتنا السابقة بين قلوبنا، وتزداد قيمة دعائنا "صلي وبارك" ونحن نلهج به بألسنتنا.

إلى الداخل قليلاً، النبي إسحاق عليه السلام وزوجته"رفقة"... نجثوا على ركبنا بقربهما. نذهب في رحلة إلى التاريخ والقصص ونذكر أنفسنا مرة أخرى بهم. تهل البشرى أن في الداخل مقام يوسف ويعقوب عليهما السلام.

لكن وفي لحظة تحوِّلُ القيود المفروضة على المكان القريب إلى بعيد... السلام عليكم أيها الأنبياء وعلى من سار على نهجكم... نقولها مخلفين وراءنا جزءاً من أرواحنا ونغادر وعيوننا تفيض دمعاً ذلك المكان الذي تفوح منه رائحة الأنبياء.

تعظنا بحيرة لوط التي يعد سطحها أعمق نقطة في العالم ولا يعيش فيها أي نوع من الأحياء، وتدفعنا إلى التفكر في كيفية هلاك قوم يوماً ما في التاريخ الغابر.

في طريقنا إلى القدس يستقبلنا بحرارة مقام النبي موسى عليه السلام على مشارف مدينة أريحا. إنه النبي موسى الذي عرفناه وتعرفنا عليه من بعيد والذي قرأنا عنه مطولاً في القرآن الكريم وعن نضاله من أجل خلاص قومه، من غطاء ضريح موسى عليه السلام تفوح رائحة الكعبة المشرفة وتحرك أفئدتنا. صوت يرتفع من المآذن ليتسلل إلى قلوبنا، إنه دليل السكينة

التي تغمر ـ منذ أمد بعيد ـ جسد موسى عليه السلام المنهك. السلام عليك يا موسى، نقولها ونترك قطعة أخرى من روحنا هناك.

في حارة اليهود المبنية من الحجارة نسير في أزقة ضيقة ومن حولنا يهود ومسيحيون لنصل إلى مقام داوود عليه السلام. في هذا المكان الذي يحمل الكثير من البصمات العثمانية ترتجف أرواحنا برداً لرؤية الطقوس الدينية المقامة فيه. وفي هذا المكان الذي بات كنيساً يهودياً نلتجئ جميعاً إلى المحراب فهو ما تبقى لنا من آثارنا هناك. "لقد اشتاقت هذه الحجارة إلى الآيات القرآنية!" نقولها ونبعث الحياة في محراب يئن بتلاوة آيات من مطلع سورة البقرة.

السلام عليك يا داوود، نودع المكان تاركين فيه جزءاً آخر من أرواحنا. ليس باليد حيلة...

نسير ليلاً وتأخذنا خطواتنا نحو معراجنا نحن. المآذن تصدح بآيات قرآنية تملأ سماء القدس. صوت الأذان الحزين الباحث عن جيرانه القريبين وعن الازدحام القديم يحاول أن يطغى بقوة على صوت أجراس تُسمع بين الفينة والأخرى ليكون دواء يداوي شعب فلسطين.

يتملكنا الغضب ونحن ندخل تحت رقابة الشرطة إلى أماكن العبادة في القدس التي ظلت أربعة قرون في كنف العثمانيين ويتحول هذا الغضب في داخلنا إلى ألم. لكننا نشعر رغم كل شيء بسكينة وطمأنينة عميقتين في حديقة المسجد الواسعة، وتغمرنا السعادة عندما نرى الفرحة تعلو وجوه الفلسطينيين لدى سماعهم أننا قادمون من تركيا، إن سعادتهم ومجاملتهم لنا وفرحتنا بأن نجعلهم لا يشعرون بالوحدة تخلف في أنفسنا آثاراً عميقة. ومع حلول الظلام ونحن في أولى القبلتين وثاني الحرمين وأحد الأماكن الموصى بزيارتها والتي يعادل أجر ركعة واحدة فيها أجر ألف ركعة تنتشي أرواحنا وتشعر بالانشراح ببشرى النبي عليه الصلاة والسلام بأن من تعبد في الأقصى كمن تعبد في السماء الأولى.

جبل الزيتون الشاهد على كل شيء هو من يحتضن مدينة القدس على سعتها وهو من يعزيها، يقف شامخاً من أجل السلام والبركة، وكي لا يحول النعمة التي يحملها إلى عبء... إنه يحتضن اثنين من أحباء الله أضفيا جمالاً على العصور وأضاءا دربنا: سلمان الفارسي ورابعة العدوية، اهتديا بنور الله سبحانه وتعالى وأرشدا الآخرين إلى الدرب. جبل الزيتون يعطينا الأمل فنمد أغصان الزيتون إلى الإنسانية جمعاء وألسنتنا تلهج بالدعاء...

أليس الدخول إلى القدس يعني الدخول إلى مكان يحتوي كل شيء؟ بمجموعات تضم أشخاصاً من الأديان السماوية الثلاث وعلى مشارف جبل الزيتون نغوص في أعماق رحلة تاريخية في المدينة التي تحمل على ظهرها المسجد الأقصى حيث عرج النبي عليه السلام إلى السماء.

نسليهان نور تُرك

الرابطة كيف تعرفون

في يوم من الأيام جاء رجل إلى تكية وقال للشيخ:

"أريد أن أصبح طالباً عندك".

فسأله قائلاً: "يا بني، هل عشقت ذات مرة؟"،

فقال الرجل: "لا".

فصرفه الشيخ قائلاً: "إذاً اذهب وابحث عن باب آخر".

هب الرجل؛ إلا أن عقله وقلبه بقي عند الباب. وفي اليوم التالي جاء وطلب الأمر ذاته، فسُئِلَ السؤال ذاته، وأجاب الإجابة نفسها، وقيل له اذهب وابحث عن باب آخر، وظل على هذه الحالة جيئة وذهاباً لمرات عديدة. ولما اشتد إصراره وتصميمه على مطلبه قال له الشيخ: "يا بني، ما دمت أنك مصر لهذه الدرجة، فكِّرْ ملياً هل سبق أن أحببت شيئاً؟"

فقال الرجل دعني أفكر، ثم انصرف. وظل يقلب فكره الليل كله. وفي ساعات الصباح الأولى صرخ: "وجدتها!" ثم أسرع إلى باب التكية، وهو يقول:

- لقد أحببت، لقد أحببت؛ أجل لقد أحببت بقرة صفراء كانت في القرية.

كنت أحلب ضرعها، وأمسح على ظهرها.
وكنت أتكدر وأحزن عندما تمرض،
وأفرح إذا شفيت وتعافت! كنت
أحب تلك البقرة الصفراء كثيراً.

فتبسم الشيخ من هذا الجواب، وقال له:

"ما دام الأمر كذلك، فتعال إلي!".

لأن المحب يفهم الحالة، والمحب يسير على الطريق. والمحبون هم أفضل من يمكنهم فهم الرابطة، لأن الرابطة رباط مضيء يتولد من المحبة، فهي اتحاد بين المحب والمحبوب بالحال، والفكر، والإحساس.

وإن الشعور بمحبة الصالحين والقرب منهم في غيابهم والنظر إلى الحياة والحوادث من منظورهم يبعث الروحانية في الفؤاد، وهذا ما يطلق عليه اسم «الرابطة» التي يرفع التصوف من شأنها كثيرًا.

الرابطة حفاظٌ على المحبة حيَّة ندية في القلوب دائمًا، وإننا لا نجد إنسانًا في الكون دون رابطة، فكل كائن قلبه- لا محالة- مرتبط بغيره. فالرابطة بالقلب موجودة لدى الوالدَين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، وبين الزوجين، والمرء تجاه مَنْ يتَّخذه قدوة لنفسه، وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه

الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

وخير مثال للرابطة بمعناها الصوفي تلكم المحبة التي كانت في قلوب الصحابة الكرام ﷺ للنبي ﷺ.

وبذلك الارتباط القلبي بين الصحابة ورسول الله ﷺ انصبغت أرواحهم بأحوال النبي ﷺ، حتى استطاعوا رضوان الله عليهم أن يتلذذوا بقولهم للنبي ﷺ بكل صدق وإخلاص: « فداك أبي وأمي يا رسول الله!»، فحين افتدوا بكل شيءٍ في سبيل الله ورسوله عرفوا الشكر والمنة في قلوبهم. وحين فهموا معنى الحديث الشريف:

«**المرء مع مَنْ أحب**» (البخاري، الأدب، ٩٦)

وعملوا به، صاروا في معية النبي حالاً وعملاً وإحساسًا وفكرًا حتى في غيابه، فكان ذلك لطفًا وكرمًا من الله لهم ببركة تلك المعية القلبية.

وحين أسر مشركو مكة **خبيبًا** ﷺ، لم يطلب إلا طلبًا واحدًا، وهو السلام على رسول الله ﷺ...لكن لم يكن عنده من يرسل سلامه هذا للنبي ﷺ! فرفع عينيه بحزن إلى السماء ودعا:

«اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس ها هنا أحدٌ يبلغ رسولك السلام عني، فبلِّغه أنت عني السلام!»

وفي ذلك الحين كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، فأخذه كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي، ثم قال ﷺ: «وعليه السلام ورحمة الله»، ثم قال: «هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام» (البخاري، الجهاد، ١٧٠)

وقبل صلح الحديبية بعث النبي ﷺ سيدنَا عثمان بن عفان ﷺ إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فقالت قريش لعثمان ﷺ:

«إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به». فقال معلنا ولاءه: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبي عليه الصلاة والسلام» فاحتبسته قريش عندها.(أحمد، ٤، ٣٢٤)

ولما بلَغَ رسول الله ﷺ والمسلمين في الحديبية أن عثمان قد قتل، أخذ رسول الله ﷺ البيعة من المسلمين على حرب المشركين مظهرًا بذلك إخلاصًا عظيما لصحابته، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، وقال:«هذه لعثمان» (البخاري، أصحاب النبي، ٧)

فعلى هذه الصورة كانت الصحبة بالقلب لدى الصحابة الكرام في غياب رسول الله ﷺ، وكأنهم كانوا أجسادا مختلفة لكن على قلب واحد.

ولا ريب أن خيرَ مثال نذكره في شأن الرابطة سيدُّنَا أبو بكر ﷺ وارتباطه القلبي مع النبي ﷺ. فلقد كان رباط محبة النبي ﷺ عند أبي بكر قويًا حتى إنه كان راضيًا أن يضحي بالدنيا كلها في خدمة النبي ﷺ وطاعته، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عن سخاء أبي بكر ﷺ:

«ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر».

أما سيدنا أبو بكر الصديق فقد أحسَّ أنه حين أفيض عليه هذا الثناء قد انفصل عن النبي ﷺ وصار من الأغيار، فشعر بألم حارق يشبه نيران الافتراق التي تشتعل في أعماق الروح، فبكى وأصابه قلق من أن يكون من «الغير» وقال: «وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله» (ابن ماجة، المقدمة، ١١/ ٩٤)

فكان قوله توضيحًا منه ﷺ أنه قد نذر نفسه لرسول الله عليه الصلاة والسلام برضا وتسليم تامَّين، وعلةُ ذلك أن قلبه صار مرآة متلألئة تعكس قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان أقربَ الصحابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام وأكثرهم اطلاعًا على أسراره، وكان لكل شيء يخص النبي عليه الصلاة والسلام قيمة عظيمة في قلبه ﷺ، فكان خير الصحابة وأولهم إدراكا لآيات الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ وما وراءها من حكم، ففهم بفراسته وبصيرته كثيرًا من اللطائف النبوية التي لم يفهمها غيره من الصحابة.

ففي حجة الوادع نزلت الآية:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾[المائدة: ٣]

ففرح القومُ بكمال الدين، غير أن سيدنا أبا بكر ﷺ أدرك أن الله تعالى آخذٌ أمانته من رسوله الكريم ﷺ، فاغتم لذلك وأخذت نيران الفراق تحرق فؤاده.

ومثال آخر يدلنا على فهمه وبصيرته أنه حين أقامه النبي ﷺ إمامًا للمصلين في مرضه الذي مات فيه، خرج عليهم ﷺ وهو عاصب رأسه، حتى صعد على المنبر، فقال:

«إن عبدًا عُرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة».

فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر ﷺ، فحزن لذلك كثيرًا، إذ أدرك ببصيرته أن رسول الله ﷺ يودِّعهم، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، وقال:

«بأبي أنت وأمي، بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا» (أحمد، جـ٣، ص٩١/ ١١٨٦٣)

وقد أصابت الحيرة الصحابة حين رؤوا سيدنا أبا بكر يبكي، فقالوا: «ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خَيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» (البخاري، الصلاة، ٨٠)

إذ لم يخطر على بال أحدهم أن العبد الصالح الـمُخيَّر هو رسول الله ﷺ، ولم يدروا الحقيقة التي دراها أبو بكر ﷺ.

ثم قال رسول الله ﷺ مخفِّفًا عن أبي بكر ﷺ، ومبيِّنًا علو شأنه بين الصحابة:

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة»(كنز العمال، جـ١١، ص٥٧٤)

«إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر، إني رأيت على باب أبي بكر نورًا» (البخاري، أصحاب النبي ٣)

والمعنى الإشاري لذلك أن باب القرب المعنوي من رسول الله ﷺ لا يُفتح إلا عندما يكون العبد مثل أبي بكر ﷺ في صدقه وتسليمه وطاعته وتضحيته وصحبته ومحبته للرسول ﷺ.

وصفوة الكلام أن الرابطة التي هي الحفاظ على المحبة في القلوب تعني السعي إلى الاستفادة المعنوية من الصحبة، بتقوية الارتباط القلبي عبر سلسلة المرشدين الكاملين الواصلة إلى النبي الكريم ﷺ.

الرابطة حفاظٌ على المحبة حيَّة ندية في القلوب دائمًا، وإننا لا نجد إنسانًا في الكون دون رابطة، فكل كائن قلبه- لا محالة- مرتبط بغيره. فالرابطة بالقلب موجودة لدى الوالدَين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، وبين الزوجين، والمرء تجاه مَنْ يتَّخذه قدوة لنفسه، وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

د. آدم أركول

الإخلاص

الشخصية الصافية النقية الخالية من الشوائب

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٤)

لا شك أن أحد أهم أهداف الدين إيصالُ الإنسان إلى كمال الشخصية الصافية النقية الخالية من الشوائب. ويمكن القول بأن "التزكية" اسمٌ لعملية الوصول إلى تلك الدرجة.

عندما تُذكر عبارة "إخلاص الدين" في كلام الله ورسوله، فإن أول ما يخطر في ذهن الإنسان هذه المفاهيم الثلاثة: الإخلاص، والصدق، والنصيحة.

فأما الإخلاص فهو اسم للنقاء والصفاء، وهو يدل بصورة خاصة على أن يكون القول والعمل في سبيل الله، خالصاً له، ولا يُرَادُ بهما إلا رضاه، ولا شيء ولا أحد سواه أبداً. وإخلاص العبودية لله وحده صفةٌ لأداء العمل باسمه تعالى، وليس باسم أحد غيره، ولا حتى باسم صاحب العمل. والناس في الحقيقة مأمورون بمثل هذه العبودية، إذ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٤)

وأما كلمة الصدق فإنها تعبر عن استقامة الإنسان ونزاهته بجوهره، وقوله، وعمله، وهذه نتيجة طبيعية للإخلاص.

والله سبحانه وتعالى يربط بين الإيمان الحقيقي والصدق، فإذا انتفى الصدق من موضع بدا فيه النفاق.

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "الدين النصيحة". قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم".

(مسلم: الإيمان، ٩٥)

حتى إن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن في كتابه العزيز أنه سوف يختبر الذين يدَّعون الإيمان- أي الذين يقولون "آمنا" بالتعبير القرآني- بامتحانات شتى لإظهار صدق إيمانهم، حيث يقول:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢ - ٣)

أما كلمة النصيحة فإنها واحدة من أغنى الكلمات في اللغة العربية من حيث المعاني والدلالات. فهي تأتي في معاجم اللغة بمعان مختلفة مثل: "خلاصة الشيء، وصفوته؛ الابتعاد عن المساوئ والمفاسد؛ الوفاء والإخلاص؛ حسن الظن بالآخرين وإرادة الخير لهم". وقد استخدم النبي عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة بمعنى "الإخلاص" الذي هو أساس الدين وغايته، ويتضح ذلك بصورة جلية في الحديث النبوي الآتي:

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال:

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"الدين النصيحة".

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم". (مسلم: الإيمان، ٩٥؛ البخاري: الإيمان، ٤٢)

إن لهذا الحديث النبوي الشريف أهمية عظيمة من حيث دلالته على أن الإخلاص هو المعيار الذي يُقاس به شخصية المسلم والعبودية التي يهدف الدين إلى تحقيقها، فنفهم من الحديث بأن التدين يكون بقدر الإخلاص.

والتناقض الذي يظهر لدى بعض الناس بين أقوالهم وأفعالهم يُسميه القرآن "نفاقاً"، ويُعد ذلك إشارة إلى ظهور مرض قلبي لدى هؤلاء.

ويريد ربنا سبحانه وتعالى الصدقَ والإخلاص في الإيمان، إذ إنه يحذر الذين يتظاهرون بالإيمان مع أنه لم يستقر في قلوبهم، حتى إنه يبيِّن في كتابه العزيز- كما ذكرنا- بأنه سوف يمتحن الذين يعلنون إيمانهم بلسانهم ليتبين إن كانوا صادقين ومخلصين في إيمانهم أم لا.

ويذكر المولى سبحانه وتعالى بأن الذين يقولون "سمعنا" عند تلاوة الآيات القرآنية، ثم لا يصدقون ولا يخلصون في قولهم هذا، بأنهم شر الدواب على وجه الأرض.

ويوضِّح سبحانه وتعالى أن الذين ينافقون أمام النبي عليه الصلاة والسلام، ويقسمون كذباً لإخفاء أنفسهم، إنما هم المفسدون الذي لا يعقلون ولا يشعرون، ويعدُّ مثل هؤلاء الذين لم ينالوا نصيباً من الإخلاص ألدَّ الأعداء.

وكثيراً ما يُذكِّرنا سبحانه وتعالى بالذين لا يصدقون مع المسلمين، والذين دأبهم المراوغة ومحاولة خداع المؤمنين، وبضرورة الحذر منهم. ويلفت النظر إلى إمكانية معرفتهم من خلال أقوالهم وأحوالهم، إذ يشير بأن دأبهم السعي خلف المصالح والمنافع، فتراهم يغيرون صفوفهم بصورة مستمرة تبعاً لتلك المنافع.

ويريد ربنا تعالى إخلاص المؤمنين في توبتهم. ويأمرهم بالندامة الصادقة على الذنوب التي اقترفوها، وبالعزم المخلص على عدم العودة إليها، ثم التوجه إلى الحق والحقيقة، حيث يقول في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ...﴾ (التحريم: ٨)

وفي موضع آخر يدعو إلى الصدق والإخلاص في العمل والسلوك، حيث يقول:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)

مبيناً بأن الأعمال التي يتخللها الرياء، والمفاخرة، أو يُقصد بها غيره ليست مقبولة عنده، ولا اعتبار لها أبداً.

ويمتحن ربنا ﷻ عباده أحياناً بالنعم التي يغدقها عليهم، وأحياناً بالمصائب التي يبتليهم بها لإيصالهم إلى جوهر الإخلاص، إذ يقول في كتابه العزيز:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

ويبين الخالق جل جلاله بأنه يحفظ عباده المخلصين، ولا يدعهم أبداً يسقطون فريسة في أيدي شياطين الإنس والجن، ويشير في معرض ذلك إلى أن الإخلاص يشكل خير درع واقٍ للمؤمن من كل سوء يتربص به، فيقول:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩ – ٤٠)

وخلاصة الكلام أن الإخلاص إنما هو الخصلة المميزة للإنسان، ولا يمكن دونها تكوين أسرة سليمة ناجحة، ولا تأسيس العلاقات مع الناس مثل الشركات والصداقات، والأهم من كل ذلك لا يمكن إنشاء علاقة صحيحة وسليمة مع الله ورسوله. ولا نستطيع الحديث عن الألفة، والوحدة، والسلام والسعادة، والطمأنينة، والمحبة، والتوفيق حينما لا يكون الإخلاص.

ويُعَدُّ الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشأناً، بل إن أعمال القلوب عموماً أهم من أعمال الجوارح، ويكفي أنّ العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه آمن هذا وكفر هذا.

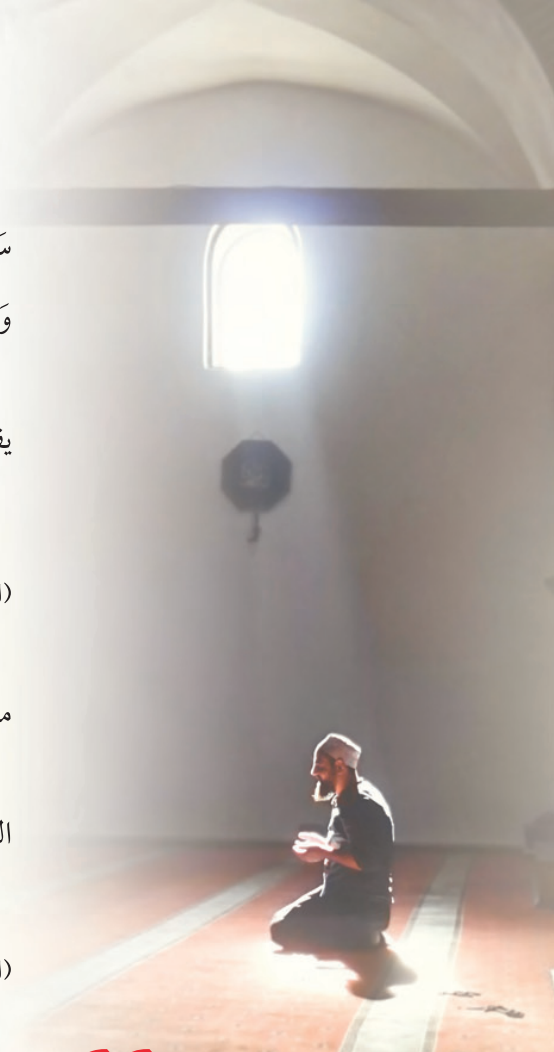

عن علقمة بن وقاص الليثي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»

(رواه البخاري وأبو داود)

الشخصية الإسلامية في المنهج العثماني

د. مصطفى كارا

لقد بذل العثمانيون جهودًا من أجل أن يعيشوا حياتهم في محتوى الدين الإسلامي. لقد كانوا بذلك يمثلون وخاصة في القرون الثلاث الأول هوية الجيل المميز الذي يمثل الشخصية الإسلامية بعد الصحابة والتابعين. ولهذا كانوا مرتبطين جدًّا بتعاليم أوامر الدين. فعلى سبيل المثال حالة الانتحار التي كانت منتشرة بشكل كبير في الدول الأوروبية وسائر الدول الأخرى، لم يُصادف مثلها في البلدان العثمانية قط، ونفس الشيء كان في القمار والخمور، لم يكن ذلك منتشرًا في الدولة العثمانية. وحتى لو كان هناك شخص واحد مُبتلى بالقمار بشكل استثنائي، فإن شهادته كانت لا تُقبل. ومشهور أن «القاضي فناري» لم يقبل شهادة «السلطان يلدريم بايزيد» ؛لأنه لم يؤدِ الصلاة جماعةً. وقد تمكن العثمانيون الذين تحركوا في إطار الشخصية الإسلامية بدءًا من الأفراد وحتى السلطان من تشكيل روحانيةٍ وتوحيدٍ قوي لا يهتز في بنيتهم، وأصبحوا قوة لا تنهزم. ومن أجل تحقيق الأخوة الإسلامية وحّدت العالم الإسلامي في بنيته وحكَمته لعدة عصور بالرفعة والشرف.

ونعرض هنا بعض مشاهدات «م. دي ثيفينوتْ» الذي وقف متعجّبا أمام هذه الرفعة وهذا الشرف:

"إن العثمانيين أصحاب تدين وإنسانية وشفقة ورحمة، وقلوبهم ممتلئة بالغيرة الدينية والحمية. وعرفوا أن نشر الإسلام في كل العالم وظيفتهم، وإذا ما صادفوا شخصًا نصرانيًّا يقدرونه كانوا يدعونه إلى الدخول في الإسلام.

لقد كان العثمانيون يحترمون سلاطينهم جدًّا، ويظهرون الصدق والإخلاص لهم، ويطيعونهم طاعة عمياء، ولم أصادف تركيًا واحدًا خان سلطانه، وتعاون مع النصارى، ولا يعرفون التقاتل فيما بينهم، وعلامة ذلك عدم حملهم السيف في المدن.

حتى أن جنودهم يكتفون بحمل الخناجر فقط. ولهذا فإن المتحادين بعضهم بعضًا قليلون، ولعل السبب في هذا هو السياسة الحكيمة لهذا الدين الذي ارتبطوا به كثيرًا، وأحبوه كثيرًا، وهي سياسة حكيمة تقضي على أكبر منبعين للشر وهما الخمر والميسر ومنعهما".

حلاوة الإيمان

قال رسول الله ﷺ:

" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" (رواه البخاري، ٦٩٤١)

الإيمان بالله تعالى له حلاوةٌ لا يتذوق طعمها إلا المؤمنون الصادقون الذين يتصفون بصفات تؤهلهم لذلك، وليس كل من ادعى الإيمان يجد هذه الحلاوة.

فمحبة الله تعالى، ومن ثم محبة رسوله ﷺ من أهم صفات من يتذوق طعم الإيمان، فمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ لا يعلو عليها أي محبة، بل هي مقدمة على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين لما جاء عن عمر ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شئ إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: "لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك".فقال عمر ﷺ: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ : "الآن يا عمر"

(رواه البخاري)

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ اليه من والده وولده والناس أجمعين" (رواه البخاري)

ويلزم هذه المحبة الاستجابة لأمر لله ﷻ وأمر رسوله ﷺ والانتهاء عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ مع الرضى والتسليم التام قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

وذكر ابن القيم رحمه الله الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى بعد فعل الفرائض ومنها:

- قراءة القرآن بتدبر وتمعن. - التقرب إلى الله بالنوافل.
- دوام ذكره على كل حال بالسان والقلب والعمل.
- إيثار محابّه على محابّ النفس. - مجالسة المحبين الصادقين.
- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

(مدارج السالكين: ٣/ ١٧)